

الأعلام من الأديباء والشعراء



سَعِيدٌ حَقِيقٌ
الْأَبْحَارُ إِلَى فِينِيقِيَا

تأليف
إيمان يوسف بقايعي



Bibliotheca Alexandrina

دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

الاعلام من الادباء والشعراء

سعيد حقه كمال

الابحار الى فينيقيا

تأليف
ليمان يوسف بقايجي

دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

جميع الحقوق محفوظة
دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

الطبعة الأولى
١٤١٥ هـ - ١٩٩٥ م.

دار الكتب العلمية بيروت - لبنان

ص.ب: ٩٤٢٤/١١ - تلّكس: Le 41245 Nasher

مُناقب: ٣٦٦١٣٥ - ٦٠٢١٢٣ - ٨٦٨٠٥١ - ٨١٥٥٧٣

فاكس: ٦٠٢١٢٣ / ٩٦١١

«لكي يكون التاريخ محبوباً، يلزم تجسيد
الظواهر التاريخية، مثلما تصنع الأسطورة
هذا أحياناً، وأحياناً الحياة نفسها، وأحياناً
المفكرون والفنانون العظام»
تولستوي



تمهيد

حوريس^(١): انهض، انهض يا أوزوريس

أنا ولدك حوريس

جئتُ أعيد إليك الحياة

جئتُ أجمعُ عظامك

وأربط عضلاتك

وأصل أعضاءك

أنا حوريس الذي يكون أباه

حوريس يعطيك عيونا لترى

وأذاناً لتسمع وأقداماً لتسير

وسواعد لتعمل

ها هي ذي أعضاؤك صحيحة

وجسدك ينمو

ودماؤك تدب في عروقك

إن لك دائماً قلبك الحقيقي

قلبك الماضي !

أوزوريس الميت: إني حي، إني حي

(كتاب الموت).

(١) كان حوريس ابن الإله أوزوريس الذي قتل نتيجة مؤامرة «ست» وكان «رع

حوارختي» ومعناه: «سيد الجميع» يرأس جلسات المحكمة التي تحاكم «ست»

وكان أوزوريس إله الموت عند المصريين جميعاً. لكن كان لكل مدينة إله محلي

لرعاية جثثها وكثيراً ما يتخذ شكل «ابن آوى» الحيوان الذي يجوب المناطق

الصحراوية ليلاً حيث تقع المقابر كما اتخذ أيضاً شكل الكلب والذئب.

انظر: جفري باوندر- المعتقدات الدينية لدى الشعوب - عالم المعرفة ١٧٣ -

مايو/أيار: ١٩٩٣ - ص (٤٩ - ٥٠).

و«حوريس» ليس إلا «الشباب». يعيد الحياة إلى ماضيه الميت.
نعم، هو «الشباب» الذي يكون أباه الوطن. وقد أعطاه بالفعل عيوناً يرى
بها غابره العظيم في حريته، وحاضره الذليل في قيود الغرباء، وأذاناً يسمع
بها ضحكات السخرية من أفواه الجبناء الذين جاؤوا رقادهم [كذا]
ويستلبون خيراته، كما أعطاه أقداماً يسير بها كي يثبت لهم أنه حيّ،
وسواعد يعمل بها على تشييد الصرح المهدوم!.

إن أعضاء الوطن صحيحة، لم ينقص منها عضو، وها هو ذا جسده
يتحرك وينمو، والدم يجري في شرايينه، والشباب على رأسه يصيح:
«إن لك دائماً قلبك الحقيقي.. قلبك الماضي».

ونخيل إلى: «أني أسمع الوطن من كل جانب يلبي النداء ويحجب
الشباب الأبناء»:

«إني حيّ، إني حيّ».

إني دائماً أؤمن بأن مصر لا يمكن أن تموت، لأن مصر، منذ الأزل،
ظلت تعمل وتكدّ آلاف السنين لهدف واحد:
مكافحة الموت.

ولقد فازت مصر ببغيته. وكلما ظن الموت أنه انتصر، قام «حوريس»
من أبنائها يصيح:

«انهض، انهض أيها الوطن! إن لك قلبك. قلبك الحقيقي دائماً..
قلبك الماضي».

وإذا الموت يتراجع أمام صوتٍ مدوّ من أعماق الوطن:

«إني حي . . إني!»^(١)

أعضاء الوطن صحيحة.

والميت يُبعث من جديد! هذا إن كان مات حقاً!

«الإنسان حيٌ وليس كالوقواق لا ذاكرة له»^(٢)

مَنْ يعيد الحياة إلى الآخر؟ . . .

للم «حوريس» أعضاء والده. أعطاه عيوناً وأذناً وأقداماً وسواعد
ودمماً فعاش.

إحياء أم استحياء؟ . . .

فتشت ستناي^(٣) - الأم عن ابنها المشارك في حرب طاحنة فصادفت
فخذ سوسروقة الأيسر. رتبت الأعضاء تماماً كما فعل «حوريس» بأعضاء
والده.

«كيف أدفنه دون أن أغسله - قالت وبدأت تبحث عن ماء ولكنها لم
تستطع أن تنقل ماءً من أي مكان في العالم.

وبعد ذلك أخذت تجمع قطرات الندى من الأزهار البرية، ومن فوق
الأوراق الخضراء في كفها. وهكذا غسلت جسد سوسروقة بالندى - ولم

(١) توفيق الحكيم - ثورة الشباب ورحلة بين عصرين - مركز الطباعة الحديثة -
بيروت - ص ٨٨.

(٢) باغرات شينكوبا - البذرة الأخيرة (آخر المهجرين) ترجمة عبد الهادي دهيسات -
د. محيي الدين سليق - مكتبة الشباب ومطبعها عمان.

(٣) هي أم النارتين الشراكسة وهي ترمز إلى مكانة المرأة في الملاحم الشركسية قبل
الانتقال إلى الأسرة الأبوية (Patriarchal).

يَقْ سَوَى وَجْهه . ولم تجد ما يكفي من الندى لغسل وجهه ، لأن [أشعة] الشمس كانت قد قويت ولعقت كل الندى .

لم أعد أجد ماءً فإذا أفعل - قالت - ورقدت فوق ولدها وأخذت تنوح عليه غاسلة بدموعها وجه سوسروقة . وعندما غسلت عينيه ، فتح سوسروقة جفنيه . ففرحت ستاي ، وقبلت شفتيه . ففتح سوسروقة فمه وتنهد^(١) .

للم «حوريس» أعضاء والده ، فعاش .
وللمت ستاي - الأم أعضاء ابنها البطل فعاش أيضاً !
إحياء أم استحياء؟ ...

رفض الواقع المعاش أم رفض موت الأبطال؟ ...

جون وليام دن كاتب انكليزي ألف كتاباً شيقاً عن الزمن قال فيها «إن الماضي والحاضر والمستقبل توجد متزامنة ، كما تثبت أحلامنا»^(٢) .

ويلاحظ الكاتب خورخي لويس بورخيس الأرجنتيني ولادةً ومزاجاً ما يفتنه في قضية العود الأبدي ، أو «التكرار الدائري» لكل تاريخ العالم ، وهي فكرة عزيزة على نيتشه ، وتلك الخاصة بالحلم داخل حلم ، وتلك الخاصة بالقرون التي تبدو دقائق والشواني التي تبدو سنوات «المعجزة

(١) مختارات من ملاحم نارت الشركسية - ترجمة ممدوح قوموق - دمشق - ستاي وسوسروقة ١٩٨٤ - ص ٣٣٩ .

(٢) العربي - صفر ١٤١٤ هـ - أغسطس (آب) ١٩٩٣ م - العدد ٤١٧ انظر من ص ٨٨ - ٩٤ .

السرية» وتلك الخاصة بالطبيعة الهذيانية للعالم. ويجب بورخيس أن يستشهد بنوفالسي:

«سيكون أعظم السحرة ذلك الذي يسحر نفسه إلى درجة يحسب معها أوهامه أشباحاً مستقلة قائمة بذاتها. ألا تكون هذه حالتنا؟...»^(١).

هل عودة الأبطال حلم اشتدت فيه رغبتنا حتى أعطيناه دماً وقلباً وساقين وساعدين وجعلناه يحيا؟...

نفخر بالأبطال أينما وجدوا. ننتمي إليهم. نشد وثاق القربى أكثر. نفتش عنهم... نستدعيهم...

انظر إلى ذلك العربي يبعث ماضي أسلافه، يملؤه الفخر والعزة يتحدث عنهم فهو يتحدث عن ذاته. يصبحون هو. أو يصبح هم. لا فرق!

حُشِدْ لَهُمْ مَجْدٌ أَشْمُ تَلِيدُ	إني امرؤ من عُصْبَةٍ مشهورة
كِرْمٌ وَأَعْمَامٌ لَهُمْ وَجْدُودُ	أَلْفُوا أَبَاهُمْ سَيِّدًا وَأَعَانَهُمْ
نَبَتْ الْعِضَاءُ فَجَاهِدُ وَكَسِيدُ	إذ كل حيّ نَابَتْ بِأَرْوَمَةٍ
فِيهَا وَنَغْفِرْ ذَنْبَهَا وَنَسُودُ	نعطي العشيرة حقها وحقيقتها
قَمْنَا بِهِ وَإِذَا تَعَوَّدُ نَعُودُ	وَإِذَا تَحْمَلُنَا الْعَشِيرَةُ ثَقْلَهَا
كُنَّا سُمِّيَ بِهَا الْعَدُوُّ نَكِيدُ	وَإِذَا نَوَافِقُ جِرَاءُ أَوْ نَجْدَةٌ
إِنْ الْمَحَلَّةُ شَعْبَهَا مَكْدُودُ ^(٢)	بَلْ لَا نَقُولُ إِذَا تَبَّوْا جِيرَةً

(١) نفسه.

(٢) المفضليات - قصيدة رقم ١٠٤ - ص ٣٥٥.

ولنعد إلى أمل دنقل الشاعر العربي المهاجر إلى الماضي ليضيء عبره الحاضر. لنعد إليه في «البكاء بين يدي زرقاء اليمامة» أو «من مذكرات المتنبي» أو «الحداد يليق بقطر الندى» أو «العهد الآتي» أو «من أوراق أبي نواس» أو «أقوال جديدة عن حرب البسوس». ولنعد إلى أدباء الأكراد يتمسكون بتاريخهم وأساطيرهم وأدباء الأرمن والروس والشركس والأتراك وكل القوميات حتى أصغر قومية في الكون.

إحياء أم استحياء؟...

أجداد أم أبطال؟...

تاريخ يُلمع لإعادة أو للإضاءة أو للافتخار أو للهروب؟...

العودة إلى لحظات الأبطال تكريس قوميات.

العودة إلى لحظات البطولة تكريس اقليميات.

متى بدأت الرحلة عربياً؟...

«لم يكن التفكير على الصعيد الاقليمي في بلاد العرب وليد الحرب العالمية الأولى. فقد ظهرت بوادر منه منذ أواخر القرن التاسع عشر ولاسيما في مصر وسوريا ولبنان وشمال إفريقيا. لكن التقسيم الذي نشأ عن الحرب العالمية الأولى، كان من طبيعته أن يقوي المشاعر القومية الاقليمية، يعضده في ذلك سياسة الأجنبي المحتل الذي كانت مصلحته مرتبطة دائماً بالتجزئة، مما يحمله في كل حين على تشجيع الكيانات الاقليمية وتغذية روح الانقسام لتأمين له السيطرة الدائمة.

وهكذا نمت في ظروف ما بين الحربين قوميات اقليمية متعددة أبرزها:

«القومية المصرية، والقومية اللبنانية، والقومية السورية»^(١).

الأولى، بدأت مع محمد علي وابنه ابراهيم منادية بدولة مصرية قوية بدل الدول العثمانية المنهارة، وتألفت مع ثورة عرابي واستهوت جماعة من الأدباء والمثقفين مثل:

أحمد أمين (١٨٧٨ - ١٩٥٤)

لطف السيد (١٨٧٢ - ١٩٦٣)

ابراهيم عبد القادر المازني (١٨٨٩ - ١٩٤٩)

العقاد (١٨٨٩ - ١٩٦٤)

طه حسين (١٨٨٩ - ١٩٧٣)

وغيرهم ولا ننسى طبعاً توفيق الحكيم و«عودة الروح» وغيرها، كما لا ننسى شوقي ومصرياته الشهيرة.

أما القومية السورية، فكانت تسير مع القومية العربية «وكان المفكرون اللبنانيون والسوريون والفلسطينيون يخلطون أحياناً كثيرة ما بين القوميتين العربية والسورية»^(٢). ولكنها توضحت بعد الحرب العالمية الأولى، إلى أن ظهر «الحزب السوري القومي» على يد انطون سعادة (١٩٠٤ - ١٩٤٩) وذلك عام ١٩٣٢ فتوضحت الصورة ووضعت الأطر الخاصة بكل من القوميتين السورية والعربية.

أما القومية اللبنانية، وهي التي تهمننا هنا، فقد «نشطت بعد الحرب العالمية الأولى لعدة أسباب أهمها:

(١) د. أحمد أبو حقة الالتزام في الشعب العربي - دار العلم للملايين ط ١٩٧٩ - ص ١٧٦.

(٢) نفسه ص ١٧٨.

- اعلان لبنان الكبير دولة مستقلة منفصلة عن سوريا.

- دعم فرنسا للكيان اللبناني الجديد.

- شعور جماعة من المفكرين اللبنانيين، بأن للشعب اللبناني ما يميزه من سائر الشعوب العربية المجاورة كوقوعه على البحر المتوسط، وارتباطه بدول أوروبا اللاتينية، ودوره الحضاري في التاريخ الذي تمتد جذوره إلى عهد الفينيقيين منذ آلاف السنين وتعايش الطوائف الكثيرة فيه، وتكوّن أهله من خليط بشري لا يحد، وانطباعهم جميعاً بطابع الاقليم اللبناني الذي يقطنونه^(١).

- يقول الدكتور كمال الصليبي :

«لعلّ أول بوادر الانشقاق بين القومية اللبنانية والقومية العربية وقعت بعد ١٩٠٩ بقليل».

- وورد في مجلة «أوراق لبنانية» ذكر لكتاب بعنوان: «مسألة لبنان» ظهر في باريس باللغة الفرنسية عام ١٩٠٨ لمؤلفه بولس نجيم تحت اسم مستعار هو «جولان» وتذكر المجلة أن جذور القومية اللبنانية تعود إلى تراث قديم من الفينيقيين إلى الشهابيين وغيرهم^(٢).

- والواقع أن الأجنبي دائماً كان يقف أمام اتحاد الأمم ويفرق الصفوف ويبيث الإحن والعداوات بين أبناء الأمة الواحدة فنجد الجفاء الذي نشب بين الأقباط والمسلمين في مصر سنة ١٩٠٨ وقبلها ما حصل في سورية

(١) انظر د. أحمد أبو حاقه ص ١٧٧ - ١٧٨.

(٢) انظر د. وليم الحازن - الشعر والوطنية في لبنان والبلاد العربية من مطلع النهضة إلى عام ١٩٣٩ - دار المشرق بيروت ص ٤٣٦ - ٤٣٩.

(لبنان) ١٨٦٠ وفي الخصومات التي حدثت بين أبناء العرب وبين المسلمين أنفسهم خير دليل على هذا القول^(١). وهذا ما حدا بالأدباء إلى المناداة بالقومية والوطنية التي تجمع أهل الوطن الواحد وهنا نذكر قول بولس سلامة:

ويظل مثذنة وباحة مسجد فالعلم في لبنان شد ولاء
نهج البلاغة نهجنا وعليه ملك البيان وسدرة الأدباء

- من أبرز القائلين بالقومية اللبنانية:

شارك قرم (١٨٩٤ - ١٩٦٣) وكذلك ميشال شبيحا (١٨١١ - ١٩٥٤) وجواد بولس (١٩٠٩) وسعيد عقل (١٩١٣) ولا ننسى تأثير المفكرين اللبنانيين كالإمام الأوزاعي (٧٠٧ م - ٧٧٤ م) الذي اتسم بالروح اللبنانية السمحة وحيث تمكن من أن «يجعل التعاطف الاقليمي يتغلب على العصبية الدينية»^(٢). وذلك حين هب لنصرة النصارى - أبناء وطنه - ضد العباسيين الذين أعملوا يد الظلم والبطش في لبنان «بكل ما أوتي من علم وجراة ويغدو مثلاً للأخوة الجامعة، ورائداً عبقرياً من رواد القومية اللبنانية على مر التاريخ»^(٣).

وبعد:

(١) د. يوسف عز الدين - أستاذ الأدب العربي الحديث في جامعة بغداد - الاشتراكية والقومية وأثرهما في الأدب الحديث - معهد البحوث والدراسات العربية - ط ١٩٦٨ - ص ١٣٩ - ١٤٠.

(٢) انطون قازان - أدب وأجباء - ج ٢ - الأهلية للنشر والتوزيع - بيروت ١٩٧٤ - ص ١٤٠.

(٣) نفسه ص ١٣٧.

إن هذه القوميات التي، وإن استمرت بعد الحرب العالمية، لكنها ضعفت. فالقومية المصرية أو الفرعونية «ضعفت كثيراً بظهور الناصرية حتى كادت أن تتلاشى ليطنفى عليها التيار القومي العربي، والقومية السورية التي ضعفت أيضاً بعدما فشلت حركتها الانقلابية في لبنان، وكانت قد ضعفت كثيراً من قبل، بظهور البعثية في سوريا والقومية اللبنانية التي تنحصر ضمن الشعب اللبناني بشقيه المقيم والمغترب.

وهذه القوميات، المحلية أو الاقليمية، لا تتعارض كثيراً مع الإطار القومي العربي العام، وليست من الحدة بحيث تقاومه أو تقطع صلتها به، وإنما هي، في الواقع، تتعاون معه ضمن إطار التمايز والصبغة الخاصة. وكما هي في الحياة، هي أيضاً في الشعر تبرز بمقدار ما يكون الظرف مؤاتياً لها أو باعثاً على ظهورها»^(١).

ولا بد أن نذكر تفاعل القوميات بعضها مع بعض حين تتعرض إحدى هذه القوميات إلى ضغط واضطهاد أو حين يتعرض بلد ما إلى استعمار وظلم.

لا بد أن نذكر أيضاً أن المسألة اللبنانية تفاعلت «بوجه عام مع ما كان يصدر في المحافل الدولية من إقرار بحق تقرير المصير للشعوب الواقعة تحت سيطرة السلطنة العثمانية المحتضرة بحسب ما تستدعيه منازع هذه الشعوب وعبقريتها الخاصة، ومن اعتراف بقومياتها، ومن عمل لرقبها، ونظامها، واستقلالها، وعدم تعدي الشعوب الكبيرة عليها»^(٢).

(١) د. أحمد أبو حقة/الالتزام.

(٢) د. وليم الخازن/الشعر والوطنية في لبنان والبلاد العربية ص ٢٣٨.

على كل حال، القومية حُلْمٌ متحمس، يخرق السكون، يخرق جدران الظلم، يوحد.

القومية بنظر «ريتان»: «روح قبل أي شيء آخر، دعامتاه تراث غني بالذكريات والتقاليد وإرادة واحدة بالحياة المشتركة»^(١).

والقومية حسب فوستيل دوكلانج الذي أجاب عام ١٨٧٠ على المؤرخ الألماني مومسن الأستاذ في جامعة برلين والذي كان قد أكد بكتاب خطي وجهه إلى الشعب الإيطالي أن مقاطعة الألزاس هي مقاطعة جرمانية مستنداً إلى اعتبارات تمت بصلة إلى العنصرية واللغة:

«إن شرط القومية أن تحافظ على إنسانيتها، وأن تصون المعاني الشاملة والقيم العريقة، وإلا تحولت إلى عصبية عمقوتة وغدت أخطر ما يواجهه العصر»^(٢).

(١) انطون قازان - أدب وأدباء - ج ٢ - ص ١٣٢.

(٢) نفسه - ص ٣٣ - ١٣٤.

الحالم بالمجد

سعيد عقل

- ١ - ولد في زحلة في الرابع من تموز ١٩١٢ .
- ٢ - عاش طفولته في بيت ثري مترف، لكنها ما أنجز علومه حتى كان والده قد بدد كل ثروته .
- ٣ - أخذ عن أمه، ادال يزبك من بكفيا، رهاقة الحس وقوة الايمان وحب الثقافة وعن والده حبه للمطلق، والكرم .
- ٤ - أتم دروسه الابتدائية والثانوية في الكلية الشرقية التي كانت بإدارة الأخوة المريميين في زحلة .
- ٥ - تخرج ذا ميل إلى الرياضيات التي لا تزال تشغله حتى اليوم . ولم يستطع متابعة دروسه الهندسية لمرض أبقاء طريح الفراش بضعة شهور، ولاضطرابه إلى العمل باكراً بسبب وضعه العائلي .
- ٦ - طالع كثيراً حتى وضع كتاباً بعنوان «تاريخ الآداب العالمية» . وهو مخطوط أقدم من كل ما نشر له من شعر ونثر .
- ٧ - تأثر بالطبيعة حتى لقد كان أميل إلى الرومنطيقية .
- ٨ - درس في معاهد شتى بين زحلة وبيروت، منها: الكلية الشرقية، معهد الآداب العليا، مدرسة الآداب في الأكاديمية اللبنانية، دار المعلمين ببيروت، الجامعة اللبنانية . لكنه عام ١٩٢٧ ترك المدرسة وانصرف إلى المطالعة، فاطلع على معظم آداب العالم القديم والحديث .

- ٩ - بدأ حياته الفكرية العامة بخطب سياسية، كان أولها ما ألقاه في زحلة في الثالثة عشرة من عمره.
- ١٠ - في الثامنة عشرة، بدأ الكتابة الصحفية في جريدة «الوادي» عام ١٩٣٠، ونشر قصائد بعنوان «انجيل الحب» في جريدة «البرق» دون أن يجمعها فيها بعد بشكل ديوان. وهو لا يعترف بالشعر الذي نظمه قبل العشرين من عمره.
- ١١ - بين ١٩٣٠ - ١٩٣٣، طارت شهرته في لبنان وجواره، كأديب وشاعر، وكسياسي يناضل في سبيل استقلال بلاده وفي عام ١٩٣٢ أنجز كتابه رندلي لكن صدوره تأخر حتى الأربعينات.
- ١٢ - عل اثر القائه خطاباً حماسياً في زحلة عام ١٩٣٥، اعتقل وحبس ثلاثة أيام في سجن الرمل ببيروت.
- ١٣ -لقى أول محاضرة له في بيروت عام ١٩٣٥، وهي تدور على الشعر. وكانت قد سبقتها مواقف خطابية سياسية في العاصمة.
- ١٤ - في العام نفسه، نشر أبحاثاً عديدة في مجلة «المشرق»، تتناول الشعر والفن عامة، وقد قال فيه الأب لامنس: «لأول مرة نرى مثل هذا البحث في تاريخ الأدب العربي»: المعرض ٢٠-٣-١٩٣٦.
- ١٥ - عام ١٩٣٦ نشرت له أحاديث في الشعر، جمعها رشدي معلوف في جريدة المعرض.
- ١٦ - عام ١٩٣٧ نشرت له أبحاث عديدة في الأدب والشعر في مجلة المكشوف.
- ١٧ - بين ١٩٣٧ و ١٩٤٨ انحصر نشاطه في القاء محاضرات فلسفية

وأدبية في معهد الآداب العليا، وفي الندوة اللبنانية تناولت أبرز وجوه المفكرين في العالم من أفلاطون وأرسطو وسقراط والأكوييني وغيرهم. وكان ينشر مقالات شتى في مختلف الصحف، ومنها «البشير».

١٨ - وفي ١٩٤٨، ١٩٤٩، و ١٩٥٣، نشر في «الشرع» مقالات متنوعة في السياسة والأدب والفن والعلم والفلسفة والدين.

١٩ - بعد أن جهز للاستقلال سنوات عدة عبر كتاباته ومحاضراته، وساهم فعلياً في استقلال لبنان، تقدم للانتخابات النيابية عام ١٩٤٧ على أساس برنامج انتخابي ظهر في البشير في ٩ أيار ١٩٤٧، وهو يلخص نشاطاته السياسية والوطنية. وفي عام ١٩٥٠ أسس مدرسة ثانوية في زحلة درس فيها الفلسفة والأدب.

٢٠ - بين ١٩٥٥ و ١٩٦١ كتب في مجلة الصياد ثم انقطع عنها حتى ١٩٦٥، إذ عاد إلى كتابة مقال أسبوعي ونشر قصيدة أسبوعية.

٢١ - بين ١٩٦١ وحتى الآن له ثلاثة مقالات أسبوعية في جريدة لسان الحال. كما كتب مقالات تاريخية وفلسفية وأدبية في الأنوار (١٩٥٩ - ١٩٦١) والمجالس (١٩٥٦، ١٩٥٧، ١٩٥٨) وفي الأسبوع العربي (١٩٦٣ - ١٩٦٤) وفي الجريدة (١٩٦٩ - ١٩٧٠).

٢٢ - يبلغ معدل المحاضرات والخطب التي يلقيها منذ بضع سنوات حوالى مئتي محاضرة وخطاب سنوياً، ويبلغ ما ألقاه من محاضرات وخطب منذ نصف قرن تقريباً، ثلاثة آلاف محاضرة وخطاب.

٢٣ - منذ مطلع حياته الأدبية وهو يحاول القيام بثورة لغوية تتناول الحرف واللغة، وتقضي باعتماد حرف منطقي وعالمي، على اعتبار أن الأبجديات جميعاً هي بنات أبجدية جبيل، وقد شذت عن وضعها المنطقي

الذي كانت عليه يوم وضعها الفينيقيون. أما اللغة، فهو يعتبر أنها تموت عندما تفارق الفم، وأن كل لغة محكية هي أخصر، وأمرن، وأجل، وأسهل. وقد حقق أول خطوة من ثورته اللغوية المزدوجة في «يارا» عام ١٩٦١. وبعدها بدأ بنشر سلسلة «أجل كتب العالم» بقصد نشر أجل ما أنتجه الفكر البشري في لبنان والعالم. وقد صدر منها منذ عام ١٩٦٨ خمسة كتب، قدم لها. وهي:

آيات وصور لشعراء فينيقية - دفاع سقراط والكريتون لأفلاطون - روميو وجولييت لشكسبير - مرجوحة القمر لصلاح لبكي - الانجيل لمار يوحنا.

٢٤ - تمرس سعيد عقل على العطاء منذ طفولته، وشجع بكتاباته الكثيرين من الشعراء الناشئين، كما كتب عن رفاقه الكبار. ثم أنشأ في الرابع من تموز عام ١٩٦٢ جائزة شهرية لمن يزيد لبنان جمالا وخيراً مقدارها ألف ليرة لبنانية. كما أنشأ عام ١٩٦٤ جائزة باسم والدته ادال عقل، مقدارها ألف ليرة لبنانية، اعطيت مرة كل شهرين لمدة سنة.

٢٥ - صاحب مدرسة فكرية، أدبية، سياسية، خاصة، ينتمي إليها كثير من الأدباء ورجال الفكر.

٢٦ - له شعر ونثر باللغة الفرنسية يضاهي أجل ما كتب في هذه اللغة.

٢٧ - ألف حوالي مائة مسرحية صغيرة، ظهر معظمها في «الشراع»، و«الأنوار».

٢٨ - درّس في المدرسة الحربية أيضاً.

٢٩ - عام ١٩٨١ تزوج من ليندا جنبلات الشاعرة باللغة الفرنسية.

٣٠ - عام ١٩٩٢ صدرت مؤلفاته الكاملة عن دار نوبلس في بيروت.

ب - مؤلفاته المطبوعة

- ١ - بنت يفتاح ١٩٣٥ .
- ٢ - المجدلية ١٩٣٧ ، ١٩٦٠ .
- ٣ - قدموس ١٩٤٤ ، ١٩٤٧ ، ١٩٦٠ .
- ٤ - رندلى ١٩٥٠ ، ١٩٥٦ ، ١٩٦٠ .
- ٥ - كأس لخم ١٩٦٠ .
- ٦ - أجل منك؟ لا ١٩٦٠ .
- ٧ - لبنان إن حكى ١٩٦٠ .
- ٨ - كتاب الورد ١٩٧٢ .
- ٩ - قصائد من دفاترها ١٩٧٢ .
- ١٠ - الوثيقة التبادعية ١٩٧٦ .
- ١١ - L'or est Poèmes ١٩٨١ .
- ١٢ - يارا ١٩٨١ .
- ١٣ - خماسيات ١٩٨٠ .
- ١٤ - خماسيات الصبا ١٩٩١ .

العودة إلى فينيقيا!

رُدُّني إلى بلادي،
في النياسيم الغوادي،
في الشعاع قد نهاوى
عند ربوة ووادي
من هواي طِبَّ وطِيبُ
تربها ومن ودادي
مرة... وُعِدْتُ... خذني
قد ذبلتُ من بُعادي
إرم بي على ضفاف
من طفولتي بدادي
نهرها ككفٍّ مَنْ أَحْبَبْتُ
خيرَ وصادي
لم تنزل على وفاءٍ
أنا مِ الوفاءِ زادي
حبِّي هناك... حُبُّ
الحب جراحاً فوادي
مَنْ أكون؟ مَنْ؟ وعطرُ
هَبُّ من ثرى جوادي

شَلَحْ زَنْبِيْ أَنَا اكْسِرْنِي
عَلَى ثَرَى بِلَادِي^(١)

العودة هاجس المغادر.
المغادر جغرافياً، أو المغادر نفسياً!
العودة حلمُ المهجّر، كلّ مهجّر.
والتهجير، لا يعني فقط أن نحمل أشياءنا ونستقلّ المسافات ونرحل.
قد نكون مهجّرين ونحن في منازلنا.
قد نكون أيتاماً ونحن بين آبائنا.
وقد نكون عقاراً ونحن بين أولادنا وأحفادنا.
الغربة كلمة لها عشرات الوجوه. لكنها، في كل وجوهها، تحمل لنا
خيبةً وحزناً.
نرفض الغربة. نستقل أول وسيلة مواصلات ونهرع إلى الوطن إذا كنّا
أبعدنا عنه جغرافياً.
نرفض الغربة. نستقل أول فكرة تخطر في بالنا، جميلة، تبعد الخيبة
والحزن ونهرع إلى وطن الايجابيات ووطن الفرح، وطن الحلم المشعّ، إذا
كنّا أبعدنا عنه بفعل السياسة، وفعل الظلم، وفعل الفقر، وفعل الموت
الروحي.

نرفض الغربة. نصرخ مع الصارخ يحذوه الأمل:

«ردّني إلى بلادي».

الغربة ذبولٌ والعودة سريان الدّم في الجسد الذي يموت.

(١) سعيد عقل - دلزي - مؤسسة نوفل - بيروت - ١٩٧٣.

«ردني إلى بلادي».

حيث لم تقلل الغربة من وفائي الذي أحمله بين جناحي زاداً أقتات

به .

«ردني إلى بلادي».

حيث لا يحلو الحب في الغربة، لا يحمل ذلك الطعم المميز . وكيف
للحب أن يجد له مكاناً في أرض قاحلة، جافة، لا يعرف الماء إليها سبيلاً
ولا الحنان والإلفة إلى قلوب أناسها طريقاً؟

«ردني إلى بلادي».

الزنبق لا يعيش إلا في أرضه . الحلم لا يعيش إلا في فرحه . الحب لا
يعيش إلا في تومهجه .

نرفض الغربة . نصرخ مع الصارخ بحدوه الأمل :

«ردني إلى بلادي».

لا شيء، على الإطلاق، يحل محلّ الوطن!
ووطن شاعرنا لم يتغير عبر الزمان . إنه ذاته له نفس العبق، نفس
الشموخ، نفس المكانة، نفس الجمال الأخاذ .

الوطن هو الأصالة!

لا شيء يستطيع أن يحلّ محلّ الأصالة!

في الغربة نفتش عن خيوط تربطنا بتلك الأرض . عن وجه، عن يد،
عن كلمة .

عانت «أوروب» ابنة «أشنار» ملك صيدون من الغربة بعد أن حملها
الحب للإله زوش إلى أرض اليونان، فاعتقدت أن الحب وطن، اعتقدت

أَنْ لِكُلِّ مَكَانٍ مَكَانًا بَدِيلًا، وَلِكُلِّ حَبٍّ حَبًّا بَدِيلًا، وَلِكُلِّ حَلَمٍ حَلَمًا
بَدِيلًا.

لكن الغربة لقتها درساً مؤلماً.

صفعتها كما صفعت مَنْ قبلها من الجُؤْوا إليها.

صفعتها كما ستظل تصفع، بقسوة، مَنْ يَأْتِي ديارها حتى آخر الزمان!

«عَفْوُكَفَيْكَ، يَا مِرِّي، أَنْتِ فِي الْغُرْبَةِ وَجْهٌ مِنْ عَهْدِ لَبْنَانِ

حَاكِ

أَنَا يَوْمَ اعْتَلَقْتُ رُوشَ تَخْلَيْتُ عَنْ الْكَرِّ فَوْقَ شَطْآنِ صُورٍ

وَتَخْلَيْتُ - أَيْنَ ضَمَّةُ أُمِّي! - عَنْ هَوًى مَا سِوَاهُ لِمَعُ سِرَابٍ

عَنْ أَبِي سَيِّدِ الْخَوَاضِرِ عَنْ زَنْدِ شَقِيقِي، قَدَمُوسَ، زَيْنِ

الشَّبَابِ

عَنْ قَرْيٍ مِنْ زَمْزَمَ عَالِقَاتٍ فِي جَوَارِ الْغَمَامِ زُرْقِي الضِّيَاءِ

يَتَخَطِّينَ مَسْرَحَ الشَّمْسِ، يَرْكُزْنَ بِبِلَادِي عَلَى حُدُودِ

السَّاءِ»^(١).

التضحية كبيرة وثمنها غالٍ.

لا عزاء للغريب إلا في عودته.

عصا الترحال تكتشف طريقها.

والسفينة تنتظر بفارغ الصبر.

العائدون قسماً: واحد إلى التراب والهواء والجبال والجدران، وآخر

إلى الأحلام الزاخرة بالأمانيات.

السفينة تنتظر بفارغ الصبر.

(١) سعيد عقل - قدموس.

فليرفع العائدون أصواتهم بالأناشيد التي موضوعها «كالصلاة، بقدر
ما يتكرر، يصبح أكثر قيمة، أسمى، أغنى»^(١).
فليرفع العائدون أصواتهم بأناشيد الوطن!
اللحن يتعالى...
الأصوات تنتظم
العائدون ينشدون بفرح ممزوج بمرارة التجربة - الغربة:
من يفقد وطنه يفقد كل شيء.
من يفقد وطنه يفقد كل شيء^(٢)!

(١) رسول حمزاتوف - داغستان بلدي - دار الجماهير الشعبية ١٩٨٢ - القاراي -
ص ١٠٢.
(٢) مثل أبخازي.

صورة الوطن

ابعثوني غداً رسالة حب
من بلادي تفجر الأرض رفقاً^(١)

مجد لبنان يعرفه أبنائه.

يغمسون أعلامهم فيه ويكتبون.

يحبونه وطنهم، لدرجة قد تصل إلى العبادة أو الانفجار.

وللحب أنواع، وللحب كلمات، وللحب مواقف، وبالتأكيد لن تكون عادية أو حيادية أو بين بين!

من يعرف الحب الكبير، يعرف الاندفاع الكبير.

من يعرف الحب الصارخ، يعرف العبقرية الصارخة.

من يعرف اشتعال النار، لا تجرؤ المياه من الاقتراب إليه.

غمس سعيد عقل قلمه في حبر الوطن وكتب ومازال! غريب هذا التوهج الذي لا يتعب. غريب هذا الحماس الذي لم تأخذ الشيخوخة من ناصيته وتجلسه بعد. سافر في كل نقطة ماء يطل عليها وطنه، في كل حبة تراب تحتضن جذراً لشجرة، في كل طريق يؤدي إلى قمة زرقاء زمردية معلقة في جدار الغمام، في كل سفينة تحمل الشمس للآخرين، تعطيها بسخاء ككف المحبوب وكغزل المحبوب وكحب المحبوب.

ابعثوني غداً رسالة حب
من بلادي تفجر الأرض رفقاً

(١) سعيد عقل - قدموس!

فلنفضّ إذن، مع شاعرنا المتوهج، الرسالة:

«لبنان وطن الحقيقة.

هكذا شاء أن يكون. هكذا فليُعلن!

عهدٌ تضعُ خريطة العالم بانهاكين من أجل أحداث التاريخ: اكتناه العقل، والتوغل في ماهية المادة، جماعة من الناس تحيا على الساحل الشرقي من المتوسط ضمن إطار فذ، لا هو تخوم اقليمية، ولا نسب عرقي، ولا سويّ نطقي، ولا وحدة أي تاريخ كان. إنما هو عجيجٌ كدّ في السير سعداً من غباوة المادة إلى وعي العقل»^(١).

لا هو تخوم اقليمية،

ولا نسب عرقي،

ولا سويّ نطقي،

ولا وحدة أي تاريخ كان

«لقد عرف لبنان منذ أبعد العصور، وإذا كان قدماء الجغرافيين لم يتفقوا تمام الاتفاق على ضبط حدوده، سواء في طوله أو عرضه، فإن اسمه كان معروفاً منذ فجر التاريخ بأنه: جبل عظيم شامخ»^(٢).

أنا حسبي أنني من جبل
هو بين الله والأرض كلام^(٣)

هذا الجبل كان واحداً. لم يكن هناك من تمييز بين لبنان الغربي ولبنان

(١) سعيد عقل - قدموس - المقلمة!

(٢) انطون قازان - أدب وأدباء - ج ٢ - ص ١٣٤.

(٣) سعيد عقل.

الشرقي «حتى أتى مؤرخو اليونان والرومان، ففصلوا بين السلسلتين. ولعل أدق من تطرق إلى حدود لبنان، وفصل بين السلسلتين، وذكر سهل البقاع، المؤرخ: بوليب وديودور الصقلي - المؤرخ اليوناني الشهير فجعل، هذا الأخير، حدود لبنان ممتدة شمالاً إلى طرابلس وأشار إلى غابات الأرز تكلل قممه.

إن الأمر الأكيد، هو أن هذه المنطقة، هي من أقدم مواطن البشر، وأن التقاليد الفينيقية ترجع أصل مدننا الساحلية كجيبيل وبيروت وصيدا وصور إلى الآلهة. فلا عجب أن يتكون، مع الزمن، في هذه البقعة بالذات، اقليم تتضح معالمه وترسم حدوده شيئاً فشيئاً مع الأيام وتطور الأوضاع.

[...] إن موقع لبنان الجغرافي، على مفترق طرق بين الشرق والغرب يربط بين قارات ثلاث، حيث تنصهر الحضارات وتتلاقى المعتقدات، جعله مميزاً عن سائر البلدان، وأسهم كثيراً في تكوين دوره التاريخي الخاص الذي يطبع الحضارة المتوسطية والانسانية بطابعه الشخصي^(١).

إطاراً فذاً.

عجيبٌ كذ في السير صعداً من غباوة المادة إلى وعي العقل.
فكان لبنان.

لبنان. يعرفه التاريخ. تعرفه البشرية. تعرفه أناشيد البحث عن الجمال:

«هلمي معي من لبنان
أيتها العروس

(١) انطون قازان - أدب وأدباء - ج ٢ - ص ١٣٤ - ١٣٥.

معي من لبنان انظري^(١)
عنقك كبرج من العاج
وعيناك كبركتي حشبون
عند باب الجماعة
وأنفك كبرج لبنان
الناظر إلى دمشق^(٢)

لبنان...

يعرفه التاريخ . تعرفه البشرية . تعرفه أناشيد البحث عن الجبال !
عرف لبنان . عُرِفَ جماله وعُرفَ أرزه الخالد .

ويا ابن البشر
أَلْغِزُ لَغْزاً
ومثل مثلاً
لآل إسرائيل
وقل هكذا:
قال السيد الرب
إن النسر العظيم
ذا الجناحين العظيمين
الطويل القوادم
الممتلئ ريشاً

(١) سليمان الحكيم : نشيد الأناشيد . ٤ : ٨ .

(٢) سليمان الحكيم : نشيد الأناشيد . ٧ : ٤ .

الكثيرَ الألوان

قد أتى لبنان

وأخذ ناصية الأرض^(١)

وللأرز مكانة خاصة في العهد القديم . صورته من أروع الصور في الكتاب المقدس . «إنه يمتاز عن كل الأشجار بقوة، بمثاقته، بعدم تعرضه للانكسار، فيعلو متشامخاً، ويفرز جذوره إلى عمق عظيم، ويكل شجاعةً وهدوءً يتحدى العواصف الهوج، وتظل أوراقه خضراء يانعة، في فصل الشتاء، حتى تسقط كل أوراق الأشجار الباقية»^(٢).
الأرز رمز لبنان.

قدموس رمز لبنان.

إنهما يعنيان القوة والشموخ والأصالة:

«أنا أدري المَلا بغضبة قدموسَ وجسمٍ من صخرٍ لبنانَ قدّةً
طلما استشرفتهُ في الأرز غَيّني يافعاً تفجر الفتوة زنده»^(٣).

إطارٌ قدّ. بلدٌ صغيرٌ لكنه بلدٌ ينشر صوته في كل العالم.

ومن الموطن الصغير نروُدُ الأرضَ

نذري، في كل شطّ، قرانا

نتحدى الدنيا شعوباً وأمصاراً

ونبني - أنى نشأ - لبناناً^(٤)

(١) حزقيال: ١٧ - ٢ و ٣.

(٢) كمال يوسف الحاج - موجز الفلسفة اللبنانية - ١٩٧٤ - ص ١٩٣.

(٣) سعيد عقل - قدموس.

(٤) سعيد عقل - قدموس.

«عجيجٌ كَذَّ في السير صعوداً من غباوة المادة إلى وعي العقل» .
فلتتابع قراءة الرسالة :

«ما أمتنا بأمة أخذاً بما تعارفت عليه السياسة . . حتى إذا كان المقصود بالأمة، جماعة من الناس، قادرة، نيرة، محبة، فنجهر، حينئذٍ، بأنه، إن لم يكن لها لبنان بمطلق معنى، فقد راح أكثر من كل بلدٍ آخر يتجه هذا الاتجاه»^(١).

لقد مضى رينان «Renan» وهُوَ زُر وبول هنري يحددون الأمة ليس بالأرض واللغة والعرق فقط، ولا بالدين والتاريخ وإرادة العيش معاً فحسب، بل قبل هذا وأبعد منه، بما مؤداه :

«الأمة إن هي إلا نفس، إلا مبدأً روحي، وهذا يوافق ما نحدّد به لبنان أو الأمة اللبنانية بأنها مواقف روحية أو مساحة حضارية.

ويكون هذا المبدأ الروحي عاملان لا ينفصلان :

واحد في الماضي وهو امتلاك مشترك لميراث غني بالذكريات،

وآخر في الحاضر، قوامه الرضا المتبادل ورغبة العيش سوي.

و[. . .] التطلع إلى غدٍ أفضل» . .^(٢).

ما وطننا وطن كما يُتعارَف عليه.

وما أمتنا أمة كما يُتعارَف عليها.

ولكنه، وطن مميز وأمة مميزة.

«لبنان وطن للحقيقة. هكذا شاء أن يكون. هكذا فليعلن».

(١) مقدمة قديموس.

(٢) لويس أبي عتمة - كلمات ومناسبات - ١٩٧٧ - زحلة - ص ٦٣ - ٦٤.

إن للمشيئة المرتبة الأولى :
«شأ تنزلُ دنيا، وشأ تبين دنيا»^(١)
الوطن أم. والأمة أم أيضاً.

يقول ابن فارس : «وأما الهمزة والميم فأصل واحد، يتفرع منه أربعة أبواب، وهي : الأصل، والمرجع، والجماعة، والدين، وهذه الأربعة متقاربة، وبعد ذلك أصول ثلاثة وهي : القامة، والحين، والقصد.

يقال : أمت المرأة تؤم أمومة. صارت أموماً.
وأمت ولدأ : صارت له كالأم تغذوه وتربيته.

يقول الشاعر :

تؤمهمو وتأبومو جميعاً
كما قد السُيور من الأديم
وأم القوم وبهم أمأ وإمامة : تقدمهم.
يقول جرير :

خلائق بعضهم فيها كبعض
يؤم صفيهم فيها الكبير
وأم الناس إمامة : صلى بهم إماماً.
وفي الحديث الشريف : «إذا كانوا ثلاثة فليؤمهم أحدهم، وأحقهم بالإمامة أقرؤهم» .
و.. أم فلاناً وإليه أمأ : قصده.

(١) قلموس.

يقول أبو تمام :

إذا أمه العافون ألفوا حياضه
ملاء، وألفوا روضه غير مجذب

والعافون : طلاب الرزق وأصحاب الحاجات .

ويقال : ائتم بفلان : اقتدى به .

وائتم به القوم : جعلوه إمامهم .

وتأمم بالتراب : تيمم .

وتأمم فلاناً : قصده ، ومنه كلام كعب بن مالك :

«وانطلقت أتأمم رسول الله ﷺ» .

وقد أضيف إلى كل المعاني السابقة معنى محدث ، يقال : أتم المرفق
والشركة تأمياً : جعلها ملكاً للأمة .

ومن الجذر نفسه جاءت «الأم» بمعنى الوالدة . وتطلق أيضاً على
الجلدة . يقال : حواء أم البشر ، وفيها أربع لغات :

أم ، وإم ، وأمة ، وأمهة .

وأم القرى : مكة .

وأم القرى : النار .

وأم الكتاب : فاتحته .

ومن الجذر نفسه : الأمم : القُرب ، والقريب المتداول ، والشيء اليسير
الحين ، والعظيم ، والوسط ، والبين من الأمر .

والأئمة : الجماعة . وفي القرآن الكريم : ﴿ولكن منكم أمة يدعون إلى
الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر﴾ .

وهي أيضاً: الجنس من كل حيّ، والجيل والقرن من الناس.
يقال: قد مضت أمة.

وفي القرآن الكريم: ﴿كذلك أرسلناك في أمة قد خلت من قبلها
أمم﴾.

والأمة أيضاً: الرجل الذي لا نظير له، والجامع للخير.
وفي القرآن الكريم: ﴿إن إبراهيم كان أمة قانتاً لله حنيفاً﴾.
والأمة أيضاً: الدين والملة. يقال: فلان لا أمة له.
ويقول النابغة:

حلفتُ فلم أترك لنفسك ريباً
وهل يائمنُ ذو أمة وهو طائع

والأمة: السّنة والطريقة، والحين والزمان، والوالدة - لغة - في الأم
ومُعَلِّمُ الحسن من الوجه، والملك، والطاعة، والنشاط، ومعظم الشيء.

والأمة - في القانون: جماعة من الناس تجمعهم عناصر مشتركة كوحدة
الأصل واللغة والقصيدة والتراث الفكري، مما يجعلهم وحدة حضارية
واحدة، ويخلق عندهم شعوراً بالانتماء إلى تلك الوحدة وتعلقاً بها.

والأمة بهذا المعنى حقيقة اجتماعية وحضارية، خلافاً للدولة التي تعتبر
وحدة سياسية وقانونية. وقد تجمع الأمة الواحدة دولاً عدة كما هو الشأن
بالنسبة للأمة العربية.

ومن روائع اللغة العربية أنها جمعت بين الأم والأمة في جذر لغوي
واحد، فالأمة أم لأبنائها، والأم أمة جامعة لخصال الخير والبر^(١).
وبعد...

(١) العربي - العدد ٤٠٧ - أكتوبر ١٩٩٢. فاروق شوشة.

سواء كان للأمة اللبنانية مفاهيم تنطبق عليها كما تنطبق على سائر الأمم، أم لم يكن ذلك،
سواء كان للوطن الصغير جغرافيا وحدود لا تُحترق ولا تُغيّر أم لم يكن ذلك،

فإن لبنان موجود وشعبه - في أمة - موجود.
له رسالة مضيئة يحملها، رسالة حضارة تُخضع الشرّ، تخضع الفوضى، تخضع الاستبداد وتقوده إلى التدجين.
أنا من أمتي رسالة نور تترك الوحش غير ذي أظفار
هكذا شاء قدموس البطل الفينيقي أن يكون. وهكذا كان. حلّ
رسالة النور وتابع بثقة:

«صيدون، القدس، انطاكية، دمشق، بؤر عقلية أربع لا تنكفئ
على ذاتها، بل تروح تتحاك والعقل العالمي. تخصبه ويخصبها.
فمن صيدون تمضي جالية إلى مصر تؤسس أجمل أحياء منفيس حيث
تقوم حركة عقلية تكفل تنشئة موسى بطل الوجدانية»^(١).

سفنهم في الجنوب تهمي على النيل
اختراعاً وفكرة وصناعة
فلذا الطرف جاب منفيس مصر
خلت لبنان مستقلاً شراعة

(١) د. مكارم الغمري - مؤثرات عربية وإسلامية في الأدب الروسي عالم المعرفة -
١٥٥ ط ١٩٩١ - ص ٢٨١.

منفيس الأرض، ومنفيس المرأة!

يُرى لبنان في منفيس. يُرى قدموس يبحر.

يُرى لبنان أيضاً في خشب الأرز الذي يحمل جسد منفيس المرأة
المصرية زوجة سليمان المخلصة التي تجرعت السم بدل زوجها. فدت
حياته بحياتها فجلس ييكها بحرقه:

«يزينُ رأسك تاج الملك إنك يا منفيس أثنى من ملكي
وتيجاني

يضمُّ جسمك لحد ملء بُردته طيب وأخشابه من أرز
لبناني»^(١)

يُرى لبنان في منفيس، ويُرى النيل وأبو الهول الجبار، والأهرامات في
لبنان، في معبد الشمس، في بعلبك.

ليس مصرياً من رأى مصر في لبنان لنقول إنه ردّ الصورة بالصورة
والقصيدة بالقصيدة تكريساً للحب والود الذي جمع كليهما. إنه «ايثون
بونين» أحد أهم أدباء روسيا المتفردين في فترة نهاية القرن التاسع عشر
وبداية القرن العشرين.

معبد الشمس (١٩٠٧)

ست أعمدة ذهبية مرمية

واد أخضر بلا شاطئ

لبنان في الثلج ومنحدر السماء الأزرق

شاهدت النيل وأبا الهول الجبار

(١) الشيخ ابراهيم المنذر.

شاهدت الأهرامات : أنت أكثر قوة
وأكثر روعة، يا اطلال العهد العتيق
هناك كتل الأحجار الصفراء الرمادية
المقابر المنسية في محيط
الرمال العارية، هنا بهجة الأيام الشابة
الأنسجة التقليدية الجليلة
شرائح طولية من الثلوج والصخور:
ترقد مثل «تاليس» مجزع في لبنان



في أسفلها مروج، حدائق خضراء
وعذب، مثل برودة الجبل
صخب الماء المتدفق في لون حجر «الملخيت»



أسفلها موقع أول معبد
وحتى لو كان مهجوراً ومنسياً
فالرواق يضاء بشمس أبدية
أبوابه تفضي إلى عالم النعيم^(١)



(١) د. مكارم الغمري - مؤثرات عربية وإسلامية في الأدب الرومي - عالم المعرفة، ١٥٥ -
ط ١٩٩١ - ص ٢٨١ .

رسالةُ النور للعالم تُنشرُ. رسالةُ الحب للعالم تُعطى بسخاءٍ.
السخاء يضاء الانكفاء على الذات.
الخصب أخذ وعطاء.
الخصب تحاك!

بين مصر والفينيقيين تاريخٌ وتفاعل.
بين مصر والفينيقيين تحاك وانفتاحٌ وعطاء متبادل.
فلنقرأ أسطورة تموز الجبيلي^(١) أو أدونيس.

تقول هذه الأسطورة «إن أدونيس كان معشوق الزهرة، وقد خرج يوماً ليصطاد في غابات لبنان، فانقضَّ عليه خنزيرٌ بريٌّ، أرسله عليه المريخ، معبود الحرب، وضربه بنابه الحاد، لأنه كان يحسده على مكانته عند الزهرة. وإذ عرفت الزهرة بقتل أدونيس، أسفت عليه كل الأسف وأخذت تبكيه وتنوح عليه. ولفرط حباها له أقامته من الموت»^(٢).

أقام حوريس أباه أزوريس من الموت.
وأقامت ستناي ابنها سوسروقة من الموت.
وأقامت الزهرة حبيبها من الموت.
كلنا، نقيم من نحب، يوماً ما، من الموت.
بالشجاعة المستمدة منه، بإكمال طريقه، بالحديث عنه، أو بالدموع.
المهم القيامة.
نعود إلى أدونيس.

(١) نسبة إلى جبيل.

(٢) كمال يوسف الحاج - موجز الفلسفة اللبنانية.

«كان يُحتفل بأعياد أدونيس على مرحلتين: الأولى، غياب المعبود، الثانية، قيامته من الموت.

في المرحلة الأولى:

كان الفينيقيون يسرون إلى ناووس مزّين وفي مقدمتهم الكهنة وتسير وراءهم بنات حاملات سلالاً، مملوءة كعكاً وزهوراً، وجمعٌ غفير من النساء لابسات ثياب الحداد. وكان الفينيقيون يضعون في الناووس تمثال أدونيس. وهو أصفر اللون والدم يخرج من جرحه، ويضعون على جانبه صورة الزهرة الباكية. وكانت تقوم بهذا العمل فتاة ذات جمالٍ رائع فتان. وعند غياب الشمس كانوا يتممون الاحتفال إذ يضعون الجثة المقدسة في القبر. وتأخذ النساء في قص شعورهن حزناً عليه.

في المرحلة الثانية:

كان الفينيقيون يتلقون من المصريين خبر انقضاء الحزن. ففي مصر كان القوم يسرون باحتفال إلى الشاطئ، ويطرحون جثة أدونيس في البحر ليصير لها ضريحاً كالشمس التي تأوي إليه.

وكانوا يطرحون في الوقت نفسه سلاً، ضمنه رأس مصنوع من الورق السميك، ورسالة يخبرون بها أهل فينيقيا بقيامة المعبود من الموت، فكانت الرياح تهب دائماً في شهر آذار تدفع السل المذكور، الذي يصل إلى مدينة جبيل، حيث يحتفل القوم بعيد قيامة أدونيس.

كان يحدث في أيام عيد الموت حادثة غريبة. فإن مياه نهر ابراهيم كانت تصبغ بلون أحمر. فيقول الناس بأن ذلك تذكيراً للدم الذي خرج من جرح أدونيس، ولا يزال ماء هذا النهر شهر آذار تشوبه غالباً حمرة،

يكتسبها من الرمال التي تقذفها الأراضي المارَّ عليها^(١).

من صيدون إلى منفيس

من صيدون إلى اليونان

من صيدون إلى العالم

نحن صيدونيون، موطننا

الأرض ونأبى أقلُّ ساح الحياة

هكذا قال قدموس. هكذا قال سعيد عقل الذي صار هو قدموس

صار هو حامل الرسالة.

من صيدون إلى فتح بلاد اليونان يبني مدينة ثيبا مرضعة أثينا وإذا

يشرق نجم روما النظام، ربيبة أثينا المنطق. تنفتح لها اثنتان من مدننا
الأربع:

عبر طرسوس تفعل أثينا في أنطاكية،

وعبر بيزنطة وبيروت تفعل روما في دمشق

ومن عصب دمشق تكون قرطبة الأندلس التي ستغدو عاصمة العالم

الفكرية بين عامي ثمان مائة وألف. وتكون أنطاكية قد انتقلت جملة إلى
روما النظام تجعلها روما الروح.

ومن هذه ومن تلك، ومن أثينا تكون أوروبا الحديثة التي لا تنفك في

القرنين الأخيرين تنصل بها عبر باريس عاصمة العالم الروحية، ومستودع
الإرث العقلي الواحد^(٢).

(١) كمال يوسف الحاج - موجز الفلسفة اللبنانية - ص ١٨٢ - ١٨٣.

(٢) سعيد عقل مقدمة قدموس.

من الموطن الصغير نرود الأرض
نذري في كل شط، قرانا
«من صيدون إلى دمشق، مرّاً بالقدس، فأنطاكية، فتشابكاتها
بعواصم العالم العقلية،

تراكمُ إرث قدير، نير، محب، قد تكون غفلت عنه في زمن من
الأزمان مدن الخير الأربع التي أطلعت، فتركت انطاكية، وتبدت دمشق
وصيدون، وتصهنت القدس، ولكن لبنان، ما انفك على الزمن يحتمل
ذلك الإرث بحرص، موفراً له المضي في اتجاهه الذاتي الفذ، مؤمناً له -
لأنفتاحه - لفتاتٍ وساعاً كالوجود صوب كل تقدم في الوجود.

هذا هو الإرث الذي يكون لبنان وذاتيته وثرأه العقلي. ويحدّه بأنه
«ما وراء» نخوم ونطق وعرق ووحدة أي تاريخ كان»^(١).

الإرث توزع على الأبناء، فبدده البعض، وحافظ عليه البعض
الأخر.

ضاعت قسّمات المورث عند البعض الأول، وظلّت عيناه تلمعان في
عيني وريثه المحافظ على إرثه بحب وثقة.
لبنان - الوريث الفذ - حمل ثروته بين ضلوعه.

خبأها في ثناياه، فعبقت منه رائحة الثراء القديم. عبقت منه رائحة
الجدود، رائحة الأصالة.

«سوف يكون لبنان - بحكم إرثه هدياً لكلّ مستهدٍ، ومدرسة حبّ
لكل مبغض، وسعة لكل ابن حق ضاق به صغر الأرض.

(١) سعيد عقل - مقدمة قلموس.

سوف يكون البلد - الوحيد إذا اقتضى الأمر - الذي يأمن العقل فيه أن يحكم على أي إله، ولاي إله. على أي إنسان، ولاي إنسان. على أي عمل، ولاي عمل، وفي كل مسكن، وفي كل شارع، وفي كل ظرف»^(١).

الحرية ابنة البشر والأرض معاً.

الحرية ابنة الإرادة. ابنة من يشأها أن تكون له.

لماذا لبنان منبت الحرية؟...

لماذا تحمل يا قدموس في بنود رسالتك للعالم هذه الكلمة الكبيرة؟...

أهي من اختراعك؟ أهي ممّا عُرِفَ عنك من حماس وثقة؟... مهلاً

قدموس هل تعلم ماذا تعني الحرية؟...

وماذا يعني أن تنسبها إليك وإلى أرضك؟...

- عندما يحدّثوننا عن «الهراكري» (انتحار الياباني بأن يقر بطنه) لا

نستغرب. مع أنه النهج الذي اختطه اللبناني لنفسه بأن ينتحر حرقاً عندما

تعاظم الصعوبة، هو أقدم بكثير من «الهراكري».

أن نكون نجهل تاريخنا هو، هو المعضلة. ويوم ستصبح أجدادنا جزءاً

من مناهجنا التعليمية، يعود استغراب هذه الأمور هو المستغرب^(٢).

نعرف، قدموس، أن جبال لبنان قد لعبت دوراً تاريخياً هاماً في تكوين

نفسية اللبناني وذلك بالحصانة الطبيعية.

«الطبيعة جعلت من لبنان نخباً لجميع المضطهدين في العالم العربي.

لذا، يتألف اللبنانيون من أقليات شردت، فالتجأت إلى مغاور الجبال

(١) نفسه.

(٢) د. وليم الخازن - نبيه البان - كتب وأدباء - ص ٣٠٢.

في لبنان. أي إن اللبنانيين مجموعة عصاة. من هنا حبهم للحرية. إذ المصطهد، الذي يأنف الخضوع، والخنوع، فيفرّ من وجه العدو، هو كائن حرّ.

هذا، وقد أيقظت طبيعة جبال لبنان، الحشنة، الصلبة، القاسية نخوة نزقة جعلت اللبنانيين يستيرون كل الصعاب، ويذلّون كل العقبات، في سبيل المحافظة على حريتهم.

نسفوا الصخور. سَطَحُوا التّواءات. سَدَّوا الفجوات»^(١).

نعرف، قدموس، أن لبنان حامي الحقيقة، لذا لجأ إليه الأحرار.

حامي الحقيقة، لا القديم يؤوِّده
حفظاً ولا طلب الجديد يفوته^(٢)

نعرف، قدموس، كم تغنى الأدباء ليس فقط بجمال لبنان الأخاذ، بل بتلك النفحة السحرية التي تنفسوها فملأت بسحرها ذكرياتهم عنه.

نعرف أيضاً كيف جاء السيد المسيح بتلاميذه إلى لبنان «أراد أن يخرجهم من عزلتهم اليهودية حتى يهتموا بالعمل الصالح لكل الشعوب»^(٣) أرادهم أن يحطموا «السياجات بين اليهود والأمم»^(٤) وأن يكفوا عن اعتبار أنفسهم شعب الله المختار، صوته يأتينا معنفاً المدن التي جرت فيها أكثر معجزاته وما تاب:

«الويل لك يا كورزين!

(١) كمال يوسف الحاج - ص ١١٠.

(٢) أحمد شوقي - قصيدة لبنان.

(٣) (٣) كمال يوسف الحاج ص ١٩٠ - ١٩١.

الويلُ لك يا بيتَ صيدا
فلو جرى في صور وصيدا ما جرى فيكما من المعجزات لأظهرنا التوبة
بالمسح والرماد من زمن بعيد.
على أني أقول لكم: إن صور وصيدا سيكون مصيرهما يوم الدين
أخفَ وطأة من مصيركما»^(١).

«لقد كان المسيح يتحدث عن صور وصيدا حديث العارف بشؤون
هاتين المدينتين. والمعلوم أن تلاميذ المسيح والمسيحيين التجؤوا إلى ربوع
لبنان، لما راح اليهود والرومان، بدافع من اليهود، يضطهدونهم في
فلسطين. ثم أخذوا يديرون حركة التبشير من لبنان بعد استشهاد
استفانوس أول شهيد مسيحي.

ويشير التقليد إلى أن مريم العذراء، مكثت، مرة، في كهف قديم
على مقربة من جنوب صيدا، تنتظر مجيء المسيح.
ربما كان ذاك الكهف معبداً لعشوتروت. المهم أن العذراء أقامت فيه.
يهوداً مَرَّ بجبيل. وأقام عليها أسقفاً من تلاميذه اسمه حنا مرقس.

وهو نسيب برنابا الرسول. [...] ويطرابلس مَرَّ حيث بقي مدة غير
يسيرة. [...] ويقول لنا بولس الرسول بأنه عندما ترك بلاد اليونان ليزور
أورشليم - وهي آخر زيارته لها - عَرَّج على صور بسفينة كانت تعبر إلى
فينيقيا لتفرغ هناك حولتها»^(٢).

(١) حتى: ١١: ٢٠ - ٢٣.

(٢) كمال يوسف الحاج - ص ١٩٢ - ١٩٣.

ليس أرزاً ولا جبلاً وماء
 وطني الحب ليس في الحب حقد
 وهو نور فلا يضل فكّد
 ويد تدع الجمال وعقل
 لا تقل: أمسى وتسطو بدنيا
 نحن جار للعالمين وأهل
 - نقرا، قدموس، الوطن، حباً، حرية، عطاء، استقلالاً لا يقبل
 الجدل.

كم رأينا على المدى من مجوس
 وملوك ومن جنود غزاة^(١)

- نعم. إنها ضريبة الموقع، ضريبة الجمال، لكن الأحرار المضطهدون
 الذين هربوا إلى لبنان حاملين معهم الحرية تفاعلوا كَوْنُوا تاريخاً مشتركاً.
 قاوموا الغزاة الآتين أيضاً من أجل خنق الحريات!

إن الوحدة التاريخية إنما بدت معالمها بشكل أوضح في المنطقة الجبلية
 حيث كان يؤمها منذ أقدم الأزمنة شعوب متنوعة بأجناسها وأديانها،
 فيعيش الواحد منها إلى جانب الآخر يؤلف بينها عاملاً درء الأخطار والمشقة
 الدائمة، مما أكسبها طابعاً خاصاً. ولا شك أن طبيعة هذا الجبل وسمت
 أبناءه بالعزم والنشاط، فإذا هم عبّاد حرية يستميتون في سبيل استقلالهم
 وحريتهم.

لقد اتصف هذا الشعب منذ القدم بالصمود في وجه كل فاتح،

(١) سعيد عقل.

وبتمتعته بالاستقلال الجزئي أو الكامل خلال العصور. فهو واثق من مصيره، نَزَّاع دوماً إلى إثبات شخصيته، متمسك بصفاته الأصيلة وقيمه الحضارية وتراثه الإنساني.

صمدت صور ثلاثة عشرة سنة أمام حصار نبوخذ نصر سنة ٥٨٧ ق.م، ثم صمدت ثانية بوجه الاسكندر سبعة أشهر حتى سقطت سنة ٣٣٢ ق.م. وأحرقت صيداء نفسها عندما حاصرها الفرس في الجبل الثالث وفنيت على بكرة أبيها، وألقى نساء قرطاجة بنفوسهن وأطفالهن في نار الهيكول وآثرن الموت على الاستسلام.

فإذا كانت القومية اذكاء البطولات المتحدرة من الأجيال البعيدة، والتأكيد على الطموح والامجاد، والوفاء بذكرى العز، وتلقي تاريخ من الحضارة والمجد ثم نشره على المعمور، والمشاركة في الانتصارات والخسائر، والدعوة إلى السلام، وإشاعة المعاني الإنسانية، فما أوضح معالم تلك القومية وما أعمق جذورها في تاريخ هذا الوطن.

أما إذا كانت القومية إرادة شعب متكامل ينشد التماسك القومي في رعشة وأهداف مشتركة ووحدة سياسية، فكان طبيعياً ألا تظهر مثل هذه القومية في ذلك الزمن البعيد، لا هنا ولا في أي بلد من بلاد الناس. وفي الواقع إننا نرى ملامح هذه القومية منذ تلك العصور، ولكن موزعة في كل حاضرة من هذه الحواضر الساحلية، ثم في الجبل فيما بعد، دون أن تبرز رابطة متكاملة، جامعة بينها، على النحو الذي تريده مفاهيم القومية المعاصرة.

ثم تنهض صور بعد الضربة القاسية التي أصابتها من الاسكندر، وتنشط صيدا إلى الثروة والمجد في عهد البطالسة، ويأخذ التمدن اليوناني

يتميز بالحضارة اللبنانية القائمة في هذه البقعة والمنتشرة منها في العالم، فيبرز دور لبنان في ميدان العلوم والآداب، وتكثر أسماء الأعلام فيه، ويستمر هذا العمل الحضاري الخطير بعد ذلك طوال العهد الروماني حيث يتجلى في مدرسة الحقوق في بيروت. وفي انطلاق هذه المدينة كمركز للدراسات اللاهوتية لرجال الكنيسة آنذاك.

وما أطلت سنة ٦٣٥ حتى بدأت الفتوحات العربية باحتلال الشام على يد خالد بن الوليد، وامتدت الفتوحات إلى سائر الشرق ومصر والمغرب وإسبانيا.

استولى العرب على سواحل لبنان ومدنه، فسقطت الواحدة تلو الأخرى في يد معاوية ويزيد. سقطت بعلبك سنة ٦٣٤، ثم بيروت سنة ٦٣٥، ثم صور وصيدا سنة ٦٣٦ وكذلك جبيل وعرقه (البلاذري) و (ابن الأثير).

هنا نصل إلى عصر الإمام الأوزاعي الذي ولد سنة ٧٠٧ وتوفي سنة ٧٧٤ أي في الجيل الثامن، حيث كان لبنان في العهد العربي من أموي وعباسي. والذي تجدر الإشارة إليه أن تاريخ لبنان في تلك الحقبة لا يزال مجهولاً جهلاً يكون تاماً.

يقول الدكتور فيليب حتي في كتابه «لبنان في التاريخ» في الصفحة : ٢٩٧

«يحيط بتاريخ لبنان في القرون الأربعة والنصف الأولى التي تلت الفتح العربي حجب كثيف. فإننا نجهل تاريخ الحقبة التي تقع بين الفتح العربي ومقدم الصليبيين جهلاً يكاد يكون تاماً لولا بعض أحداث بارزة وخطوط عريضة نتلمسها بشيء من الجهد، فلا المصادر البيزنطية تقول

شيئاً، ولا المصادر العربية تغني طالباً.

على أن الأمر المعروف تاريخياً أن فينيقية كانت في عهد الخلافة الأموية متوترة بدمشق، أما الجبل فقد حاول معاوية إخضاع سكانه النصارى فلم يفلح لوعورة مسالكه من جهة ولتحصن أبنائه من جهة ثانية، خصوصاً وأن ملوك الروم كانوا قد أرسلوا إليه قوماً من جندهم يعرفون بالمرقة، واللفظة فارسية تعني البطل، فقدموا إليه من جبال طوروس وكانوا أشداء في الحروب، عروفين بمعايير الجبال، بلغ عددهم الاثني عشر ألفاً، تحدث عنهم معظم المؤرخين أمثال العلامة الفرنسي دوبرون والبلاذري وابن العربي وياقوت والأب لامنس وغيرهم. وقد عرفهم العرب بالجراجة نسبة إلى مدينتهم جرجومة.

اندمج هؤلاء الجراجة بسكان الجبال الأصليين وأسفر هذا الاندماج عن قيام الطائفة المارونية التي تؤلف وحدة مسيحية متراصة. ويقول الدكتور فيليب حتي:

«ومنذ هذا الوقت يبدأ جبل لبنان بالظهور على مسرح السياسة في هذا القسم من العالم».

يجدر التوقف هنا عند شخصية فذة كان لها تأثيرها العميق في نشوء ما سمي بالقومية المارونية، وهو القائد العالم البطريك يوحنا مارون، أول بطاركة الموارنة، الذي استطاع في عهده أن يكون الخصائص الأولى التي جعلت من هذا الشعب أمة ذات سيادة. وعندما هدمت جيوش الأمبراطور يوستنيان الثاني دير مار مارون في وادي العاصي وتابعت زحفها لمحاربة الموارنة في لبنان، قهرهم هذا القائد البطل في أميون. ومنذ ذلك الوقت أخذ ذلك الشعب يتكون وينمو كأمة مستقلة متصفاً بالجرأة والحفاظ على عاداته ودينه وقوميته.

وبالفعل كان الموارنة، وهم سكان جبل لبنان، محتلين القسم الأكبر من سواحله، وهم الذين بسطوا حدوده في ذلك الحين من جبال طوروس إلى نواحي الكرمل. فما كان من الخلفاء العرب إلا أن عاملوا اللبنانيين باللين بعدما خبروا شدة مراسهم وتوقعهم إلى الحرية والاستقلال، فكانوا يفاوضون أمراءهم وأسيادهم، مما يؤكد وجود الكيان اللبناني في ذلك الحين. إلا أنه لم تمر فترة من الزمن حتى رفض موارنة الجبل دفع الجزية إلى خلفاء بني أمية في دمشق وفرضوا على هؤلاء نوعاً من الجزية تدفع لهم ضمانة لحسن تصرفهم تجاه الدولة.

ولا بد هنا من التنويه بأن الحكم الأموي اتصف بالتسامح الديني، فكان معاوية مثلاً يحتذى في سلوك رجل الدولة. تزوج ميسون النصرانية التي احتفظت بدينها وولدت له ورثه يزيد، وكان الأخطل المسيحي شاعره، ومنصور بن سرجون جد القديس يوحنا الدمشقي وزير ماله، وطبيبه كان نصرانياً^(١).

حمل اللبنانيون الودّ للشام والأمويين وغنوا المجدّ الماضي :

لبنى أمية في النفوس مكانة	بالباس والإحسان والتعديل
ملكوا القلوب بحلمهم وسخائهم	ورعوا ذمام عشيرة وقبيل
ماتوا كما عاشوا ملوكاً بسلاً	لم يؤخذوا بالقهر والتكيل
أدمشق أنت أميرة أموية	بالقصر والكرسي والإكليل
فابكي معاوية الذي بدعائه	جعل الخلافة فيك بين نصول
والأخطل المختال يترع كاسه	ويقول: دنيا لشعري ميلي

ويجور الأذيالَ عند خليفةٍ قد رصَّعَ الاكليلَ بالإكليل^(١)
وحمل شاعرنا حبه للشام باسم لبنان محيياً:

سائليني حين عطرتُ السَّلامَ	كيف غار الوردُ واعتلَّ الخزامُ
وأنا لو رحتُ أسترضي الشذا	لأثني لبنانُ عطراً، يا شامَ
ضفتاك ارتاحتا في خاطري	واحتمى طيرك في الظن وحامَ
أنا إن أودعتُ شعري سكرةً	كنتِ أنتِ السكبُ أو كنتِ المدامَ
رُدُّ لي من صوتي يا بردي	ذكريات زرنُ في ليا قوامَ
هذه «الغوطة» أوفى تربةً	بهم أم جبل «النبك» القدامَ
جبلٌ يجمعُ في أصلابه دعة	السفح إلى عزِّ السنامَ
ظمى الشرق، فيا شام اسكبي	واملاي الكأسَ له حتى الحمامَ
أهلك التاريخُ من فضلتهم	ذكرهم في عروة الدهر وسامَ
أمويون فإن ضقتِ بهم	ألقوا الدنيا بيستان هشامَ
أنا لست الغردُ الفردُ إذا	قال طاب الجرحُ في شجو الحمامَ
أنا حسبي أنني من جبلٍ	هو بين الله والأرضِ كلامَ
قممُ كالشمسِ في قسمتها	تلدُّ النور وتعطيه الأنام ^(٢)

لكن تلك لم تكن ميزة الحكم العباسي الذي اعتمد القوة والبطش .
لقد عظم على أبي جعفر المنصور أن تقف جيوشه عند صخور لبنان دون
بلوغ جباله . وأمر بالقسوة على سكان تلك الجبال الذين كانوا يشكون
فداحة الضرائب، فرفعوا راية الثورة، وتنادوا للدفاع عن حريتهم
وكرامتهم، ونشبت أولى الثورات في لبنان سنة ٧٥٩ - ٧٦٠ في بلدة

(١) أبو الفضل الوليد - الياس عبد الله طعمة - ديوانه - من قصيدته الأموية .

(٢) سعيد عقل - كما الأعمدة .

المنيطرة كسروان، فاحتل أهلوها السهول وزحفوا على بعلبك. فهاجمهم
العامل العباسي صالح بن علي وهو أخو عبد الله القائد العام للجيش
العباسية، وشتمهم في طول البلاد وعرضها، وأعمل السيف والنار في
القرى^(١).

هل نقرأ التاريخ؟ . . .

هل نصمد كما صمد الأوائل طويلاً أم نلقي أنفسنا في نار الهيكل
لننقى؟

وهل نجد يوماً ما أحداً يللم أجزءنا فيحيي ذكرنا ويعيدنا إلى
الحياة؟

فلنسأل حوريس ولنسأل ستاي ولنسأل الزهرة.

مهلاً، قدموس، في رسالتك كلمات يعرفها النخبة.

يعرفها الأفاذا.

الحرية غنيته بصلاية الصخر الذي يميز هذا الوطن والذي جسمك
ابنه.

مهلاً، قدموس، أرى صورهم تشبهك:

«أجفَل الليث منه فانتهر الليث شجاعاً، ورثه مستذلاً

ضربة منه لا تخيب، فإن ينقض يبطش وإن يشأ ينسلا»^(١)

مهلاً قدموس قرأنا التاريخ فماذا عندك؟ . . .

كم رأينا على المدى، من مجوس

وملوك، ومن جنود غزاة

(١) سعيد عقل قدموس.

شعراء، وأنبياء، وأرباب
 جثوا، دون صخرنا، في صلاة
 وتظلُّ الأمواه من نهر الكلب
 كباراً، فوق الإهانة قدرا
 كركلاً، يا رعمسيس، ويا برقوق
 أنتم، في الشط، أوهام ذكرى! (١)

- مهلاً، قدموس، هل تكفي صلابة الجسد - الصخر؟

هل تكفي الجبال ليكون الفذ فذاً؟ ...

تحمل رسالة نور؟ ... تحمل رسالة حب؟ ...

تقرأ علينا الجغرافيا.

تعرض أسماء الأماكن والحروب والانتصارات.

أو الأجساد الملقية برضا في نار الهيكل.

مهلاً قدموس.

حكيت بلسان لبنان.

لكنك.. فيك بعض غضب. بعض عنجهية... بعض...

ما تكبرت، مشرق الأرض ساحي

يوم أعطي، ومغرب الأرض ساحي

- وكيف تنكر لغيرك إذن أن يكون له الحق في أن يكون مشرق الأرض

ومغربه ساحه أيضاً؟ ...

نحن صيدونيون، موطننا

الأرض ونأبى أقل ساح الحياة (٢)

(١) سعيد عقل - قدموس.

(٢) نفسه.

- مهلاً، قدموس، هل الظلم يتجزأ؟ ... هل الغزو يتجزأ؟ ...

نحن غيرُ الغزاةِ ننزلُ قفراً
فنخليه أنهرأ وجنائن^(١)

نزرع المذّن، نزرع الفكر في الأرض ونغضي مع الفاتحين مثالا
وغداً تعرفُ الحضارةُ في صيدون أمّا فتنحني إجلالاً^(٢)

صيدون أم الحضارة.

ماذا لديك؟ ...

غزوتِ أم فتحتِ البلدان؟ ...

نحن غيرُ الغزاةِ ننزلُ قفراً
فنخليه أنهرأ وجنائن!

هكذا قال ابنك حامل رسالتك.

غزوتِ أم فتحتِ؟ ...

حين حوّل العرب - الفاتحون - كنيسة آيا صوفيا إلى مسجد، لم يعتبروا
التحويل انتصاراً. لم يعتبروا التحويل إذلالاً، بل اعتبروه هدية:

كنيسة صارت إلى مسجد
هديةً للسيد السيد
كانت لعيسى حرماً فانتهت
بنصرة الروح إلى أحمد^(٣)

(١) نفسه.

(٢) نفسه.

(٣) أحمد شوقي.

حين فتح العرب الأمصار - لم يعتبروا أنفسهم غزاةً. كانوا حاملي رسالة أيضاً.

بفتح غاز عفيف القنا
لا يحمل الحق ولا يعتدي
أجار من ألقى مقاليدَه
منهم وأصفى الأمن للمرتدي^(١)
حاملو الرسالة - قدموس - حاملو حب.

حاملو الرسالة - قدموس - حاملو رافة وحضارة.

حمل العرب رسالة إلى الأندلس.
هلوها - غزاةً - ولكن «غير الغزاة» أيضاً:

غزاة كرام باسلين تسلطوا
فكانوا لأهل الأرض خير قضاة^(٢)

ولقد تحولت وديان الأندلس الجافة إلى رمز للنماء الزراعي، بعد استيراد نظم الري من سوريا والأراضي العربية الأخرى. فبعد أن كان الزيتون والقمح هما المحصولين الدائمين الوحيدين في الأندلس، جاء العرب ليضيفوا إليهما، الرمان، والبرتقال، والليمون، والباذنجان، والخرشوف، والكمون، والكزبرة، والموز، واللوز، وأشجار النخيل و«الحنة» والوسمة (نبات يستخرج منه صبغة زرقاء) والسفوة (نبات

(١) جيمس بيرك - عندما تغير العالم - ترجمة ليلي الجبالي - مراجعة: شوقي جلال - عالم المعرفة ١٨٥ - الكويت - أيار ١٩٩٤ - ص ٤٩ - ٥٠.

(٢) انظر العربي - العدد ٤٢٧ - يونيو ١٩٩٤ م.

تستخرج منه صبغة حمراء) ونبات الزعفران، وقصب السكر، والقطن، والأرز، والتين والعنب، والخوخ، والمشمش [...] وامتلات قرطبة بمحلات بيع الكتب، وأكثر من سبعين مكتبة عامة. أما المكتبة الرئيسة الكبرى في قرطبة والتي بنيت داخل القصر الملكي نحو عام ١٩٧٠، فقد كانت موضع فخار العرب في اسبانيا. [...] واستخدم العرب الورق في ذلك الزمان البعيد [...] والأهم من هذا كله، أن الدين والثقافة تعايشا معاً في تواؤم، فحيثما وجد الإسلام، وجد معه التعطش إلى المعرفة وتطبيقاتها على شتى مناحي الحياة^(١).

وما بقي، قدموس، سوى آثار وأبيات شعر محفورة على حجر في الأندلس.

١ - أغارُ عليك من عيني ومني
ومنك ومن زمانك والمكان
ولو أني خبأتك في عيوني
إلى يوم القيامة ما كفاني
ولادة

٢ - يا من غدوتُ به في الناس مشتهراً
قلبي يقاسي عليك الهم والفكراً
إن غبتَ لم ألقَ إنساناً يؤانسني
وإن حضرتُ فكل الناس قد حضرا
ابن زيدون

نقش على حجر وحكاية حب^(٢)؟ ...

لكن رسائل الحب، رغم ما فيها من نية طيبة وخيرة، لا تصل أحياناً إلى أماكنها التي يجب أن تصل إليها.

(١) أحمد شوقي.

(٢) أبو الفضل الوليد - الياس عبد الله طعمة - ديوانه - دار الثقافة - بيروت.

تُحْزَقُ وتُرْمَى بعَبْثٍ
الحَبِّ - قَدُموس - رَغْم روعته، لَا يُفَرَّضُ!
إِنَّه فعلٌ اختيَاراً

بين الغزو والفتح وشائجُ قرْبٍ
يُقَالُ:

الْفَتْحُ: نَقِيضُ الْإِغْلَاقِ. فَتَحَهُ يَفْتَحُهُ فَتْحاً وَافْتَحَهُ وَفَتْحَهُ فَانْفَتَحَ
وَتَفَتَّحَ.

والفتح: افتتاح دار الحرب وجمعه فتوح.
والفتح: النصر.

وفي حديث الحديبية: أَهْوَفَتْحُ؟ أَيْ نَصْرٍ.
وَاسْتَفْتَحْتُ الشَّيْءَ وَافْتَحْتُهُ، وَالْإِسْتِفْتَاحُ: الْإِسْتِنصَارُ.
وفي الحديث: أَنَّهُ كَانَ يَسْتَفْتِي بِصَعَالِكَ الْمُهَاجِرِينَ أَيِ يَسْتَنْصِرُ بِهِمْ.
وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى:

﴿إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ﴾
وَاسْتَفْتَحَ الْفَتْحَ: سَأَلَهُ.

وَقَالَ الْفَرَاءُ: قَالَ أَبُو جَهْلٍ يَوْمَ بَدْرٍ: اللَّهُمَّ انصُرْ أَفْضَلَ الدِّينِينَ
وَاحَقَّهُ بِالنَّصْرِ.

فَقَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ﴾

قَالَ أَبُو إِسْحَقَ: مَعْنَاهُ إِنْ تَسْتَنْصِرُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ النَّصْرُ، قَالَ:
وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مَعْنَاهُ

إِنْ تَسْتَقْضُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْقَضَاءُ. وَقَدْ جَاءَ التَّفْسِيرُ بِالْمَعْنَيْنِ جَمِيعاً.

وقوله تعالى: ففتحن أبواب السماء، أي فأجبنا الدعاء.
واستفتح الله على فلان: سأله النصر عليه ونحو ذلك.
والفُتَاحَةُ: النُصْرَةُ.

الجوهري: الفُتَاحَةُ، بالضم، الحُكْمُ.

وقيل: الفُتَاحَةُ: الحكومة.

قال الأشعر الجعفي:

أَلَا مَنْ مُبْلِغٌ عَمْرَأَ رَسُولاً
فَلَايَ عَنْ فُتَاحَتِكُمْ غَنِيٌّ

الأزهري: الفُتْحُ أن تحكم بين قوم يختصمون إليك.

كما قال سبحانه مخبراً عن شعيب: ربنا افتَحْ بيننا وبين قومنا بالحق
وأنت خير الفاتحين.

وفي أسماء الله تعالى الحسنى: الْفَتَّاحُ. قال ابن الأثير:

هو الذي يفتح أبواب الرزق والرحمة لعباده. وقيل: معناه الحاكم
بينهم.

- غَزَا: غَزَا الشَّيْءُ غَزَوْاً: أَرَادَهُ وَطَلَبَهُ وَغَزَوْتُ فَلَاناً أَغْزَوَهُ غَزَوْاً.
وَالْغَزْوَةُ: مَا غُزِيَ وَطُلِبَ.

قال ساعدة بن جؤية:

لَقُلْتُ لِدَهْرِي: إِنَّهُ هُوَ غِزْوَتِي،
وَلَايَ، وَإِنْ أَرِغْبَتَنِي، غَيْرَ فَاعِلٍ

ومغزى الكلام: مقصده.

وعرفت ما يُغْزَى من هذا الكلام: أي ما يُراد.

والغزو: القصد.

وكذلك: الفَوْز.

وقد غزاه وغازه غزواً وغُزواً إذا قصده.

وغزا الأمر واغتراه، كلاهما: قصده.

والغزو: السير إلى قتال العدو وانتهابه.

غزاهم غَزَوْاً وَغَزَوَاناً، عن سيويه، صحت الواو فيه كراهية الإخلال، وَغَزَاوَةً.

قال الهذلي:

تقول هُذَيْلٌ: لا غَزَاوَةً عندهُ

بلى غَزَوَاتٌ بينهن تَوَائِبُ

وقال ثعلب: إذا قيل غزاة فهو عَمَلٌ سنةٍ وإذا قيل غزوة فهي المرة الواحدة من الغزو.

ورجل غازٍ من قوم غَزَيَْ مثل سابقٍ وسُبْقِي وغَزِيَّ على مثال فَعِيلٍ مثل حاجٍ وحجيج وقاطنٍ وقطين.

ابن سيده: والغَزِيُّ اسمٌ للجمع.

قال الشاعر:

سريتُ بهم حتى نكلُ غَزِيئهم

وحى الجياد ما يُقَدِّنُ بأرسانٍ

وفي جمع غازٍ أيضاً: غُرَاءٌ، بالمد، مثل فاسقٍ وفَسَاقٍ.

والمغازي: مناقب الغزاة

الأزهري: والمَغْزَى والمَغْرَاةُ والمغازي مواضعُ الغزو وقد تكون الغزو

نفسه.

قال جميل:

يقولون جامِـدٌ، يا جميلُ، بغزوةٍ
وإنَّ جهاداً طيَّـاً وقتالها^(١)

بين الغزو والفتح وشائج قرى.

الغازي، حامل الرسالة، غازٍ حتى لو كان عملاً بالطيب والعطر
والحضارة.

الغازي، حامل الرسالة، غازٍ - قدموس - حتى لو حوّل القفر أنهاراً
وجنائن.

الغازي يعود إلى أرضه بعد أن عارك الغربَ وعاركته.

يستلقي تحت ظل سمائه هو.

يخلع عنه اللقب الذي حاول أن يوشيه بخيوط الذهب.

يتذكر، في ليالي شيخوخته، أمجاده التليدة،

يرونها لأحفاده،

أو يبكيها علّ دموعه تكون كدموع الزهرة أو كدموع ستناي لها قدرة

الإحياء!

صيدون أم الحضارة.

ابنك قدموس فدّ بعضلاته، فدّ بأفكاره.

حمل رسالة حبّ وانفتاح وتحاكّ للعالم كله.

حمل القلم أيضاً قدّمه بسخاءٍ للآخرين:

جاء قدموس بالكتابة بالعلم إليهم إلى الأواني العصور

(١) لسان العرب.

وغداً يعرفونَ أنا على السفن حملنا الهدى إلى المعمور^(١)

الكتابة تهون الحوار مع كل الشعوب.

الكتابة درب يسهل التجارة.

اثنان وعشرون حرفاً علاماتٌ هجائية.

قبلاً،

«كانت الكتابة بالتصوير. وقد ظل استعمالها محصوراً، مدة من الزمن، في المعاملات التجارية والشؤون الإدارية فلم يرتفع الإنسان نحو الإشارات الهجائية إلا بفضل الفينيقيين.

هم أول شعب ابتكر أسلوباً كتابياً ليس فيه غير حروف حقيقية.

وقد أدركوه، لا بالتأمل الصافي المنعزل عن الواقع، وإنما بضغط من المعاملات التجارية.

رأوا أنفسهم محتاجين، وهم الملاحون الماهرون، إلى طريقة سهلة في الكتابة، يتمكنون بها من التفاهم مع الشعوب الأخرى المتنوعة الأجناس^(٢).

تسمين صيدون. يكلل رأسك الفخار. تعترين بقدموس، ابنك،
والفدء!

ولكننا نسمع أصواتاً من بعيدٍ مسافاتٍ، من بعيدٍ عصورٍ تعترضُ.
تقول بأن الحرف اكتشاف المصريين، وأخرى تقول إنه آشوري المنبت والمنشأ.

(١) سعيد عقل - قدموس.

(٢) كمال يوسف الحاج - ص ١٣٥ - ١٣٦.

أصوات تذكرنا بـ: الميروغليفية وأخرى بالمسمارية.

قدموس بعنجهيته، قدموس بحماسة، هل درس، هل نقل، هل عدّل ما كان موجوداً وهو التاجر الذي يفتش عن سبلٍ أوسع لتجارته؟...

تعرفين، صيدون، ولا بد إن كان ابنك قد أكب على تراث الآخرين قبل أن يعلن اكتشافه.

أخبرنا صيدون عن الحرف. هل وُلِدَ الحرف من رحمك حقاً؟...
تفضل صيدون قدميها بمياه الشاطئ النقي.
- قدموس ابني، لكن الحرف ابن عقله هو.
«الحرف هو أسمى أفاعيل التجريد التي يقوم العقل.

التحليل الذهني للأفكار، يصل، في نهاية المطاف، إلى أنه لا يوجد شيء وراء الفكر إلا الكلمة، التي تكون قد رسمته على القرطاس، أو قرعته بواسطة الشفتين»^(١).

اخترع، أم اكتشف، أم درس، أم عدّل، ما هم؟...

كانت كتابات المصريين والآشوريين صعبة. تعتمد على الرسم.

كتابتنا علامات هجائية أي رسوم ونقوش «يدل كل واحد منها على صوت، يجمع فيه قرع اللهاة وأطراف اللسان، مع الحنك والحلق والأضراس والشفيتين.

تلك الأصوات تتغاير بتغاير القرع، فتتمايز الحروف في السمع وتتركب الكلمات وفق ما في الضمير، حتى إذا وقع البصر عليها تمثلها

(١) كمال يوسف الحاج ص ١٣٦.

الذهن، أيضاً، وأصبح قادراً على أن يعرف كل ما يمكن العقل البشري أن يصل إليه.

وهكذا، نرى أن اكتشاف الفينيقيين، للحرف، هو أخطر فعل وجداني، في تاريخ ما عمله الإنسان، من حيث النشاط الحضاري^(١).

اخترع، أم اكتشف، أم درس، أم عدّل، ما هم؟...

«ما من شعب ذي فضل على العالم، إلا وللعالم فضل عليه. عبقرية لبنان هي بأنه كان منفتحاً على كل رياح الفكر. ولا أحقر من إنسان يقيم عظّمته على إنكار تأثيره بالغير. التأثير بالغير الذي يعقبه ابتكار هو وحده الانفتاح»^(٢).

- صيدون! توجّك ابنك أماً للحضارة وانتظر انحناءات الإجلال والاعتراف بالعظمة.

صيدون! توجّ ابنك نفسه حاملاً رسالة تغير درب البشرية وانتظر الاعتراف بأنه حقاً حمل الحب والهدى والنور وقدمها بسخاء ما بعده سخاء!

صيدون! مشرق تاريخ العلم فيك، كما تاريخ التجارة، معهد قانوني في بيروت كان قبلة أنظار الطلاب في الشرع خرّج في عهد الرومان الحكام والقضاة والمشرّعين والبلغاء الذين تباروا في الخطابة أمام المحاكم.

صيدون! يعرفك التاريخ سيدة البحار والتجارة. حاملة بشارة الأديان أيضاً.

(١) نفسه - ص ١٣٦.

(٢) سعيد عقل في لقاءٍ معه مع د. وليم الخازن/ انظر كتب وادباء ص ٣٠٢.

صيدون... .

يا عجبياً «كذ في السير صُعداً من غباوة المادة إلى وعي العقل» .

من أنت؟ ...

أما بالَغ ابنك الممتلئ حماساً في رسم الهالة حولك، تماماً كما يرسم كل
الأبناء صور آبائهم الذين يحبون؟ ...

هل شاء قدموس أن يختار أحلى ما لديك ليحدثنا عنه وهو صاحب
مبدأ:

«شأ تزلزلُ دنيا، وشأ تبين دنيا»^(١)

لماذا قلب ابنك بعض صفحات دموية في تاريخ ممالكك.

سئل: ألا ترى في تناحر الممالك الفينيقية القديمة، وتحالف بعضها،
أحياناً، مع الفاتح الأجنبي، على البعض الآخر، نقطة سوداء في تاريخ
فينيقية؟

- هذه الرؤيا رؤيا من لا يعرف من تاريخنا سوى حياة السرايات. لربما
كانت دور الحكم أقل ما بهم التاريخ. فما رأيك بمن يؤرخ حقبة من تاريخ
المانيا بهذا العنوان: «عهد الاحتلال النابوليوني» بدلاً من «عهد بتهوفن»؟
هكذا يفعل اميل لودفيغ عندما يؤرخ لألمانيا. يكون نابوليون قد انمحق من
الأذهان يوم ستبقى السمفونيتان الخامسة والتاسعة. كذلك ما رأيك بأن
أورخ حقبة من تاريخ بيروت بعنوان «عهد السيطرة الرومانية» بدلاً من
عنوان: «يوم كانت بيروت عاصمة العالم الفكرية»؟ وفي تلك الحقبة
راحوا، كما يقول اليوناني ننوز، يطالبون بجعل بيروت عاصمة للعالم «لا

(١) سعيد عقل - قدموس.

يتم السلام بدون سيطرتها»^(١).

صيدون يعرف ابنك أنك بشر ولست إلهة
يعرف ابنك أن البشر يخطيء ويصيب. يغفر لك الخطايا ويُشَدُّ
الإصابات أناشيدٌ قد يرى البعض فيها بُعداً عن أرض الواقع، عن
الاعتدال، عن المنطق التاريخي والفلسفي والبشري للإنسان.
ولكن...

كيف لنا أن نطالبه بأن يضع قدميه حيث يضع الكلُّ أقدامهم؟...
لا يملك لبنان نخوماً اقليمية ولا نسباً عرقياً ولا سوباً نطقياً ولا وحدة
أي تاريخ كان ولا حتى مقومات الأمة كما تفهمها السياسة. ومع ذلك،
بقي لبنان، رغم كل ما مرَّ به، وجوداً قابلاً لكل التفسيرات، ولكل
التسميات، ولكل الاجتهادات في تحديده.

ابنك - صيدون - انتقائي من الدرجة الأولى.

يختار ما يشاء من أسماء وتواريخ وأفكار. يخلِّق بها عالياً حيث لا مكان
هناك إلا للقدادر على التحليق ومزج الفكرة بالعاطفة، مزج الواقع
بالأسطورة، مزج الإيجابيات بعضها ببعض، فإن نقصت واحدة، اخترع
مكانها جمالاً أتقن صناعته.

ابنك - صيدون - انتقائي يختار ما يحب ويصوغه كما يحب،

ورث الحرية كاملة واستخدمها كاملةً فرسم لوحات تعبق بالفرح
والشجاعة والبطولة.

رفض أن يكون نسخة عن الآخرين.

(١) د. وليم الخازن - ص ٣٠٠ - ٣٠١.

رفض أن يكون بارد النظرات خائف الكلمات كما «اللا» .
انتقائي يحمل الحماس .

يقرر وينفذ .

يقف في وجه العاصفة دون أن يغلق الأبواب .
هذا إذا لم تكن العاصفة - أصلاً - من صنع يديه .
يصرخ معترضاً :

«يشاؤونني غير نضر الخيال» .

كما اللا ولا عبقرى الغد؟ .

أبيت أنا قبلة الموعد .

سكنتُ بلادي صنعَ المحال .

سأسكنها بعد صنعَ يدي»^(١) .

(١) سعيد عقل ! .

أبناء البحر

والاكتشافات الأثرية الحديثة أكدت، اليوم، أن الفينيقيين حطّوا مراسيهم على شواطئ البرازيل، قبل ألفي سنة من اكتشاف كولومبوس لذلك العالم.

توصّل إلى هذا الاعتقاد الدكتور سايروس غوردن من جامعة برانديس في الولايات المتحدة، وهو خبير في شؤون التاريخ الفينيقي.

ويقال: إن اللوحة الأثرية، التي حملته على الاعتقاد أن الفينيقيين بلغوا أطراف شرق البرازيل، في القرن السادس قبل المسيح، اقتطعت من حجر عُثِرَ عليه في باراهيا (البرازيل) عام ١٨٧٢.

وتروي اللوحة كيف أن عشرة، من المراكب الفينيقية، غادرت جزيرة هزيون جابر في خليج العقبة، وأبحرت عبر البحر الأحمر وحول أفريقيا.

اللوحة تحمل الكلام التالي:

- ١ - نحن أبناء كنعان من صيدون مدينة الملك. والتجارة رمتنا.
- ٢ - على هذا الشاطئ البعيد، أرض الجبال. وقدّمنا ذبيحة بخور للآلهة.
- ٣ - والآلهات في السنة التاسعة عشرة لحيرام ملكنا القدير.
- ٤ - وأتيننا من عصيون جابر، على البحر الهاديء. ذهبنا بعشرة سفن.
- ٥ - وكنا في البحر معاً ستين حول أرض حام، ثم انفصلنا.
- ٦ - بيد بعل، فافترقنا عن رفاقنا وأتيننا إلى هنا اثنا عشر.
- ٧ - رجلاً وثلاث نساء، على هذا الساحل البعيد، الذي أنا متعشّرت الرئيس.

٨ - استوليت عليه . نأمل أن تؤيدنا الالهة والالهات^(١) .

قبل كولومبس بألفي عام وصل البحارون إلى شواطئ البرازيل
حاملين : الفكر مع التجارة . هكذا يقول الأحفاد .

من صيدون ، إلى دمشق ، مرّاً بالقدس ، فأنطاكية ، فالبرازيل ، أفلعت
السفن حاملة إشراف الحضارة والفكر إلى جانب البضاعة .

من صيدون ، إلى دمشق ، مرّاً بالقدس ، فأنطاكية ، فالبرازيل ، أفلعت
السفن ، يحمل بحاروها تحدي الدنيا « شعوباً وأمصاراً » بشراً وحجراً .
يحملون إرادة البناء ينطلق البحارة منشدين ، تلموهم الثقة والعزة :

ومن الموطن الصغير نرود الأرض
نذري في كل شطّ قرانا
نتحدى الدنيا شعوباً وأمصاراً
ونبني - أنى نشأ لبنانا^(٢)

ينطلق البحارة منشدين :

واشرأبت إلى جزيرة تاسو
تتملاه يبرها إيريزا^(٣)

وقد عبروا البوسفور ، والدردنيل ، والبحر الأسود ، وبلغوا القوقاز من
جهة ، كما نزلوا قيصرية وإيطاليا :

(١) كمال يوسف الحاج - ص ١٣٤ - ١٣٥ .

(٢) سعيد عقل .

(٣) سعيد عقل قدموس .

يوقظون الدنيا على ضربة المول
مستعمراً، فتنهض سكري^(١)

البحر جني أبنائه. البحر جني مجد ومهابة.
البحر فتح لا كالفتح، فتح راق، فتح خير.
البحر يطوّعه أبنائه.
البحر حكاية لا تفصل عن أبنائه.

«يوم تجني صيدونا الزرقاء الرجة مجداً، مهابة، وحضارة
ويرى الفتح فتحه كل قبر فوق لبنان والبحار بحارة»^(٢)
«بين الفينيقيين والبحر أكثر من صداقة.
بينهما عهد وميثاق.

حالم، يومذاك، حال العربي مع الفرس والجمال. لم يكن للعربي بدّ
منها. لذا، انعكسا في مجمل حضارته.

هكذا الفينيقي والبحر. إنها وحدة حضارية لا تتجزأ.
لا غرابة إذا جعل الفينيقي الماء عنصر العناصر الموجودة.
لقد كان الفينيقيون بحارة ذوي مهارة فائقة. فرصدوا المظاهر
الفلكية، وراقبوا نظام الرياح، وفحصوا التيارات البحرية، ولاحظوا
التعاريج السواحلية»^(٣).

بين الفينيقيين والبحر أكثر من صداقة.
هو رغيف خبزهم إذ لا مورد من زراعة ولا صناعة

(١) (٢) سعيد عقل قدموس.

(٣) كمال يوسف الحاج ص ١٤٧.

ولا ثروات معدنية .
بين الفينيقيين والبحر أكثر من صداقة .
أتقنوا التعامل معه .
الطريق إلى رغيف الخبز كان أزرق .
وقد اعتاد الأبناء هذا اللون مذ ولدوا، بل قبل أن يولدوا .
أما قال الشاعر العربي :

ففي البحر مجرى للشعوب ومكسب
بتحصين ثغر أو بتحصيل ثروة؟
دهش اليونان المجتمعون حول السفن الفينيقية بالزخرف التي عبر
البحّارة، بالأساليب الصناعية، بورق البردى الأصفر عليه حروف منقطة
سوداء أو حبسوا منها شراً إلى أن تعلّموها فابتسموا للبحّارة بأمان .
دهش الصيادون الجليليون عندما أشرفوا على صيدا وصور «لقد رأوا
المعامل الضخمة يتدفق منها الدخان الكثيف وهي تصنع آليات الخزف
والزجاج والنحاس والحديد . رأوا الهياكل العظيمة، والقصور الفخمة،
والأسواق العامرة والبساتين الخضر التي لا مثيل لها في بلاد فلسطين .
ثم رأوا الأحواض الواسعة المزدهجة بالسفن الكبيرة التي كانت تمخر
عباب البحر بالسلع الفينيقية إلى أقاصي المعمور .
قابلوا بين قواربهم على بحيرة طبرية وهذه السفن الضخمة وقد امتدّ
وراءها البحر الأبيض بمياهه الزرقاء الصافية . هذه السفن ستقلّهم حاملين
بشارة الانجيل المفرحة إلى عواصم الإمبراطورية الرومانية»^(١) .

(١) كمال يوسف الحاج ص ١٩٥ .

بين الفينيقيين والبحر أكثر من صداقة .
لم تكف صناعة البورفير ولا الأرجوان ولا الزجاج والخزف ولا تقديد
الأسماك .

لم تكف صياغة الحل الذهبية والفضية ، ولا الأقمشة المحاكاة ببراعة .
التفتوا إلى أرضهم ، فإذا هي كلسية رملية .
التفتوا إلى أنهارهم فإذا هي عميقة ، قصيرة ، لا تصلح للرّي ولا
تطعم من جوع ،
فيمموا شطر الأزرق الواسع .
غنّوا للبحر حباً .
غنّوا في البحر حباً .

«رنينٌ حلّيك من هو صيدون
بالمجد ، في ليلةٍ لا تمَلُ
أباريقها خوذُ العائدين
من الفتح ، والسكب من ذاتِ دلُ
وندمانها السافطون الأولى
يببون بالعزم أن يُرتجَلُ
يقولون : «يا بحرُ ، يا بحرنا ،
لحدّك قلنا : انتقل ! فانتقل» (١) .

أغنية البحّارة تزخر بالحياة .
أغنية البحّارة لحنها رنين الحليّ .
أغنية البحّارة كلماتها حديث الندمان .

(١) سعيد عقل .

أغنية البحارة مشيئة! مشيئة! الإيمان المطلق بالإرادة لا يغيب.
صوت قدموس يرجع إلينا.
«شأ تزلزل دنيا، وشأ تبني دنيا»
صوت قدموس يشارك البحارة في ترويضهم البحر.
يقولون: «يا بحر، يا بحرنا،
لحدك قلنا: انتقل فانتقل»
صوت قدموس منهج ورسالة: شأ، وشأ!
أغنية البحارة تزخر بالحياة:
«رنين جليلك يوقظ صوراً
وقرطاجة، والعصور الأول
وعملاً أيدينا أنجما
نذّر على الناس منها الأقل
فإن فاح زهر فنحن الشذا
وإن طاب شرب فنحن الثمل»^(١)
الإيقاظ فعل لا يكف عنه قدموس. الإيقاظ بند من بنود الرسالة.
البحارة يوقظون الدنيا.
ورنين الحلي يوقظ صور وقرطاجة والتاريخ إيقاظاً رقيقاً يعبق
بالموسيقار والشعر والعطر.
البحر صديق ودود لا يعرف ماهيته الغريب عنه.
يبدو للغريب عنه قاسياً هادراً خفيفاً.

(١) سعيد عقل.

«لما ملك المسلمون مصر، كتب عمر بن الخطاب إلى عمرو بن العاص، رضي الله عنهما، أن صيف لي البحر، فكتب إليه:

«إِنَّ البحر خلقَ عَظِيمٌ،

يركبه خلقٌ ضَعِيفٌ،

دَوْدٌ على عودٍ».

فاوعز حينئذٍ بمنع المسلمين من ركوبه.

ولم يركبه أحدٌ من العرب إلا من افتأت على عمر في ركوبه ونال من عقابه، كما فعل بعرفجة بن هرثمة الأزديّ سيّد بَجيلة لما أغراه عثمان، فبلغه غزوه في البحر، فأنكر عليه وعَنّفه أنه ركب البحر للغزو.

ولم يزل الشأن ذلك حتى إذا كان لعهد معاوية، أُذِنَ للمسلمين في ركوبه والجهاد على أعواده»^(١).

تعارف العرب والبحر، فتصادقا بعد طول هجر!

بين الفينيقيين والبحر أكثر من صداقة.

بين الفينيقيين والماء^(٢) أكثر من صداقة.

لَمْ لَا؟ والماء ذو أهمية مطلقة لحياة الإنسان واستمراره منذ قديم الزمان. «ففي مصر تحدثنا الأسطورة عن ولادة الإله الأكبر من مياه الغمر العظيم. وفي الهند تحدثنا الأساطير عن ولادة (براجاباتي) الإله الخالق من بيضة ذهبية كونية تشكلت في مياه المحيط الأولى.

(١) مقدمة ابن خلدون.

(٢) إشارة إلى طاليس الفينيقي الذي ولد حوالي ٦٤٠ قبل المسيح في مدينة ميلات. وقال: إن الماء هو المادة الأولى التي انبثقت منها الكائنات وإليها تعود.

وفي بلاد الإغريق يصف هوميروس الأوقيانوس بأنه أبو جميع الآلهة وأصل كل الأشياء. [. .] وارتباط الماء بالخلود في ملحمة جلجامش كانت له امتدادات في فكر المنطقة وفي معتقداته [. .] واستمر ارتباط الماء بالخلق في الديانات السماوية ففي القرآن ﴿وجعلنا من الماء كلّ شيء حي أفلا تؤمنون﴾^(١) وفي العهد القديم: «في البدء خلق الله السموات والأرض. وكانت الأرض خربة وخالية وعلى وجه الغمر ظلام وروح الله يرفّ على وجه المياه»^(٢) [. .] وقدسية المكان ترتبط عند العرب القدامى بقدسية المياه وبحيويتها [. .] كما أن إيجاد الماء أو السير فوق الماء هو من المعجزات والكرامات التي تُخصّس بها الأنبياء والأولياء وبعض المتصوفة»^(٣).

فهل نعجب بعدُ أن يعزو طالس انبثاق الكائنات من الماء وعودتها إليه؟ . . .

ينطلق البحّارة مقتحمين البر والبحر فاتحين، واثقين من أنفسهم يعلو صوته. يتميز صوت قدموس:

قلتُ: إنا سنقحمُ البرَ والبحرَ
نجرُ الفتوحَ تلوَ الفتوحِ^(٤)

«نقول في اللون الزاهي إنه كالبحر،

(١) سورة الأنبياء.

(٢) الكتاب المقدس - العهد القديم - سفر التكوين.

(٣) ممدوح قوموق - ملاحم نارت الشركسية - ستاي وسوسروقة دمشق ١٩٨٤ - انظر

ص ٣٥ - ٣٨.

(٤) سعيد عقل.

وفي الصوت القوي إنه كالبحر،
ونقول في حقول الشعير الواسعة إنها كالبحر،
ونقول في الحكمة العميقة النفس الكبيرة إنها كالبحر،
لا، بل نقول في المساء الصافية إنها كالبحر^(١).

صوتُ البحّارة يأتينا:

يقولون: «يا بحر، يا بحرنا،
لحدّك قلنا: انتقل فانتقل

- سئل الجبليون مرة:
- ما أعذب الأصوات؟...
- فكّر الجبليون قليلاً ثم أخذوا يجيبون:
- رنين الفضة.
- صهيل الحصان.
- وقع حوافر الخيل على صخور المضائق.
- ضحكة الطفل.
- غناء الأم عند المهد.
- خرير الماء.
- إلا أن أحد الجبليين قال:
- صوت البحر، ففيه كل الأصوات التي ذكرتم.

(١) رسول حمزاتوف - داغستان بلدي ص ٢٩٠.

وستل الجبليون مرة أخرى :

- ما أحلى الألوان في النفس ؟ ...

فكر الجبليون قليلاً ، ثم أخذوا يجيبون :

- السماء الصافية .

- قمة الجبل المكلفة بالثلج .

- عينا الأم .

- شعر الابن .

- الدراق المزهر .

- صفصاف الخريف .

- ماء العين .

إلا أن أحد الجبلين قال :

- لون البحر ، ففيه كل الألوان التي ذكرتم^(١) .

* * *

بين الفينيقيين والبحر أكثر من صداقة .

صيدا وصور تغسلان قدميهما على الشاطئ الأزرق .

تلملحان الصدف الملون . تصنعانه عقوداً . حلياً يوقظ الدنيا .

تبسمان للآتين برقة . للغرباء كما للعائدين .

«مَنْ عنده بحرٌ ، يأتيه كثيرٌ من الضيوف»^(٢) .

ومَنْ يأتيه كثيرٌ من الضيوف لا بدَّ وأن يكون مضيافاً ، كريماً ، متهللاً

الوجه !

(١) نفسه ص ٢٩٤ - ٢٩٥ .

(٢) نفسه ص ٢٩٢ .

ذكر البحارون قدموس بالحبيبة . أوقفه رنين حليها . فهرع إليها
تحدوه الرغبة في لقاءها الودود أبداً .

تحدوه الرغبة في انتعاش قرح ينتقل منها إليه .
يعرف أنها تنتظره .

تنتظره بلا موعد .

تنتظره دائماً .

يعرف أنه لن يلقي منها إلا ابتسامات حلوة .

يعرف أنها مثله . تماماً مثله . لا تحب «اللا» تجدها عقيمة . باردة . لا
لئون لها .

شباكها مفتوح وعطرها يملأ أنفه . يرمي زهرة على سريرها تطلّ
ضاحكة .

يتقن قدموس أحرف الكتابة . ويتقن قراءة العينين أيضاً .

مندفع هو كالعادة . لا موارد . لا خوف . لا تراجع . ينادي «رندي»
يدعوها ببساطة إلى الأزرق الفتان :

«أنتِ واليختُ، وأن نبحرا

في الرياح الليناتِ الهبوبِ

في التعلاتِ، وخفق الطيوبِ

في الذُرى

من خضمّ ليلكي الغروبِ

كادَ، مذْ أومأتِ، أن يزهر»^(١)

(١) سعيد عقل - رندي - أنتِ واليختُ وأنا .

تفتح رندلى عينها دهشة كطفل يسمع أسطورة تهز رأسها مومنة أن
يكمل حديثه الشيق الحلو.

«أنتِ، واليختُ، وأن نغرباً
أَجَرَ الأرضِ، عن العالمين،
عن عَزِيفِ الجنِّ، والسَّامِرِينَ،
عن رُبى
طُرَزَتْ بالوردِ والياسمين،
نبتغي، خلف السُّهى، مطلباً...»

تبسم رندلى. تتخيل الرحلة حقاً. يتابع:

«أنتِ واليخت، وأن ننزلاً
في المساء اللؤلؤي الغيوم،
شاطئاً نسياً بإحدى النجوم
حُملاً

منذ ضاحكتنا هَمُّ المومم
آه! ما أجمل، ما أجمل»^(١)

تهرع رندلى حافية القدمين على الشاطئ الرملي قدماها توحيان له
بالشعر. تحكيان حكاية حب. تحملان الحبيبة إلى لقاء. تحملان الشاعر إلى
عالم من الحب ساحر.

«قدمالك - خَلْبِي وطيف منام -
ريحانتان... وقال زوجُ حمام..»

(١) سعيد عقل - دلزى.

في الرونقِ ارتغتُ فهل غَطَسْتُ
دَفلي تَرُدُّهُما . وضجُّ خزام ؟ ..
أنا منذ ما دننا شعرت بها
كفي تلملمُ نفحةً وكلام ..
قدماك قد حكنا حكايتنا
أيام نحن تأوُّهً وسلام^(١)

تضحك الفتاة للقصيد . تتأمل قدميها كأنها تراهما للمرة الأولى .
كأنها لم تعرفهما قبل هذه القصيدة .

يتراكمضان ! اليختُ أبيض كالحلم . ينتظر الإقلاع . هو أيضاً لا يعرف
«اللاء» عدوة العبقرية . هو أيضاً يبسم فاتحاً ذراعيه لهما .

ينشد الشاعر المحب :

يا يَجْتَها الأبيضُ
أَقْلَعُ بنا
كَادَ السنى
من حسنِها يمرضُ
أَقْلَعُ بنا ،
يا يَجْتَها الأبيض .

قد أقبلت تطربُ
أخْتُ الشعاعِ

(١) سعيد عقل - رندلي .

أرخر الشراغ
وابلغ بنا الكوكب.

ما هم، طر، ما هم
هذا الزبد
طا الجلد
واهزأ بهول اليم

سُم الرياح الويل
هيج البحار
خل الدوار
يصيب جسم الليل

دغ رندلي تمزج
دغ رندلي،
واسكر على
أغنية الد ملج

هتية لها الوعدا
وعند الغيوم
قل للنجوم:

كوني لها القصد

هذاك نجمٌ عَبرَ
في دربنا
عُرج بنا
على خليج القمر.

يا يَحْتُ جزتِ البَوْنُ
لم يبق شيءٌ
سهران حيَّ
إلاك خلف الكوْنُ.

لا قلت، يا يَحْتُ: أين؟
أين البحار؟
لك القرارُ
في منتهى عينين!
أين البحار؟
لا قلت، يا يَحْتُ: أين^(١)؟..

رحلة بحرية أم رحلة سحرية؟...
رندلى نشوى. لا تعرف القلق. لا تعرف الغضب. وكيف تعرفهما

(١) سعيد عقل - رندلى - قصيدة اليخت الأبيض.

وقدموس شاعرٌ يجيد اكتشاف الجمال والتعبير عنه . تحسّ معه أنها أميرة آتية
حفاً من بلاد الحلم . لو لم يعرّج اليخت الأبيض على خليج القمر ، ما
عرفت رندلى أن الليل يركض . قطبت !
اليخت يعود أدراجه .

لا يحب قدموس المواعيد المنظمة . هو يراها متى شاء دون ساعاتٍ
انتظار . ألا يحمل المشيئة دستوراً يطبقه ؟ . . .
لن يعبّد فتاته برحلة أخرى ولا بعقد نجوم . تعرف هي أنه سيفعل
هذا في لحظة اشتياق .
اليخت يقترب أكثر .
تبسم بدلال :

«إن شباكي على الطريق
ارشقي الحصى فأستفيق»^(١)

أيضاً فعل الإيقاظ يلتصق به ، حتى مع الحبيبة الرائعة . وحين ينزلان
إلى الرمل بأقدام عارية ، وتلامس حباتها الرطبة الزلّوية جلدهما يقفان
ناظرين إلى البحر يردد أصداء نشيد يقترب .
رفاقه البحارة عادوا .
الليل مغمّر والقيثارة موجٌ يرافق الكلمات .
تشد رندلى كفّ قدموس . تسمع الكلمات التي بالأمس أسمعها إياها
مشروع أغنية له ولرفاقه ينشدونها كلّها عادوا إلى الوطن .
كلّما سمعتها عرفت أن حصى سيرشقي على شباكها إذا عاد الفتى من
رحلة قطف فيها المجدّ .

(١) سعيد عقل - أجل منك لا - قصيدة إغراء .

إلى البلدِ الوادعِ الأسمرِ
نسيجِ الأساطيرِ والذكرياتِ
وأغنيةِ السفنِ المقلعاتِ
عملةِ الفكرِ للكائناتِ
وللأعصرِ

إلى البلدِ الحلوحِ حيثِ الترابِ
غبارٌ ينفضُه في الإيابِ
جوادُ البطلِ
تودُّ الدولُ
لو أن لها منه غارُ.

إلى البلدِ الحلوحِ حيثِ التلالِ
ركامُ حنينِ
بناها الخيالُ
وحيثِ الفضاءِ
ضياءُ
يشيع من الياسمين^(١).

(١) سعيد عقل - رجوع البحارة.

عوالم الحب

«لا تدخين، لا قهوة، لا شاي، ولا خمر.
ولماذا أدخن وأشرب؟..
التبغ لا أدخله إلى بيتي.
وفي مجالسي لا أحد يدخن.
هذه كلها من العادات البشعة التي لا أحبها.
لا أدخل إلى بيتي إلا الأشياء الجميلة.
أمي لو لم تكن جميلة لما علقت صورتها على الجدار»^(١).
بين البشاعة - في كل صورها - وبين شاعرنا عداوة دائمة وطلاق لا
رجوع عنه.
اختيارياً هو. من الدرجة الأولى!
مزاجي من النوع الراقى.
يزيح ناظره عن كل ما يزعجه.
يعتبره غير مخلوق أصلاً.
فلا يرى إلا ما يحب هو.
ولا يفكر إلا بما يشاء هو.
أما قلنا إن دستوره المشينة؟
يحيط نفسه بالجماليات،
يحيط أفكاره بالجماليات،
يحقق لنفسه الرضا. يحقق لنفسه الهدوء الصافي.

(١) سعيد عقل - حديث صحافي.

يحقق لنفسه ما يشبه حالته أثناء إبداع فلذة من شعره .

- يرى من البحر امتداده وزرقته اللازوردية .

يرى من الحب النقاء والمواعيد الجميلة .

يرى من المرأة، تلك الميتسة أبداً . المحبة أبداً التي تعرف الدلال ولا

تتقن العقاب وإن هددت !

يرى من الوطن وجهه المشرق العملاق . يضعه في مصاف عمالقة

الأوطان .

من يجرؤ أن يعترض على كل هذه الأفكار؟ ...

من يجرؤ أن يأخذ بيد شاعرنا إلى تلاطم الأمواج أو مآسي الحب

ودموعه أو المرأة الشريرة القاسية المنتقمة؟ .. أو الخناجر التي غرست في

خصر الوطن بمساعدة بعض أبنائه؟ ...

سينال «لعنة» زحلاوية من يجرؤ على الإشارة إلى أمر من هذه

الأمر... .

إن جرؤت، قد يرشقك بنظرة غاضبة وشتيمة أقلها أن «رأسك

فاخر» أو أنك «أمي» أو «جاهل» أو لا ترى «الجمال» بل أنت صديق

«البشاعة» فأنت بهذا أعور ترى بعين واحدة أو أعمى إذ لا ترى إلا اللون

الأسود والقاتم .

جان بول سارتر حين أراد شرح نظرية الالتزام في الأدب، سئل لماذا

إذن لم ينضم إلى الحزب الشيوعي فدهش للسؤال والسائل ونعته بالأحمق .

ونعت مرة من سمّاه «بالرأس العنيد» نعته بأنه واحد من «ذوي العقول

الدنيا» ، ونعت من سأله المزيد عن الالتزام بأنهم خبيثاء وذوي عقول جدلة

وأهم يتفوهون بالحقايق «ذلك أنهم يقرؤون مسرعين دون أن يتدبروا،

ويحكمون قبل أن يشتموا» كما وصف النقاد أنهم «لا يفهمون مدلول الأدب»^(١).

«النثر فكر، والفكرة نعيمها، وهو صور والصورة نعيمها، وهو عواطف والعواطف نعيمها. عناصر النثر جميعاً عناصر وعي. النثر في طبيعته وعي بوعي. أما الشعر فلا».

إنه «حالة من لا وعي فوق الوصف لا تشرح، جوهرها أشبه بموسيقى، بها يتحد الشاعر حمياً مع الأزلي من حقائق هذا الكون المهيّب».

الشعر؟ إنه لسراة العقل، لطبقة مصطفاة، باستطاعتها التذوق. أما النثر فللتلامذة - وقد يكونون خارج المدارس^(٢):

في وعيه - إذن - يغضب من تلميذ لا يفهمه هو الأستاذ الشارح أفكاراً فلا بأس إن استعمل العصا، وعصاه كلمة نارية!

لن نطرق باب الأستاذ الواعي، بل ندخل عوالم الشاعر الغارق في نعيم بناءه هو وشاءه هو.

«لا أدخل إلى بيتي إلا الأشياء الجميلة»
أيضاً،

لا يُدخِل إلى عوالمه العاطفية والفكرية إلا الأشياء التي تحمل الطابع نفسه!

(١) جان بول سارتر ما الأدب - ترجمة وتقديم وتعليق د. محمد غنيمي هلال - دار نهضة مصر للطبع والنشر - الفحالة - القاهرة - ص ٧ - ٨.

(٢) من مقدمة المجلدية.

لا يعرف شاعرنا الدروبَ التي تمتلئ بالأشواك. إنه يتعد عنها.
لا يعرف الشبايك التي وراءها امرأة تبكي إن غاب وتغضب إن تأخر
وتهدد باستبداله.

لا يعرف شاعرنا من الأشياء إلا ما يريد هو أن يعرفه عنها.

عوامله مميزة حلوة.

في كل قصيدة رائحة عطر، وياقات زهر، نجوم، كواكب، أقمار،
سفر، مجد، وطن، حب، ألوان زاهية منشورة على الشبايك المفتوحة
للسمس والهواء.

يقدس الوطن رافضاً أن يمسه أحدٌ بسوءٍ أو أن يشير إليه إشارة اتهام،
أو خيانة أو رشوة.

يقدس المرأة رافضاً أن تصفها كلماته جسداً وشهوة رخيصة.

وطنه من صنع يديه.

امراته من صنع يديه.

«سكنتُ بلادي صنع المحال

سأسكنها بعدُ صنع يدي»

أيضاً:

«وكوني كما شئت أصابعُ خالتي

أنا بعضها؟ هاوي الهوى، ناقش المجد؟^(١)

امراته، كما وطنه، أبعد شيء عن الخطيئة.

تعطي وتعطي وهو بالتالي يأخذ منتشياً. يصوغ الأخذ شعراً من أسفل

قدميها حتى أعلى رأسها.

(١)، دلزي.

أينما مرّت تلاحقها عيناه. يلاحقها لا وعيه فيصوغ مرورها شعراً
يعلّقه شراعاً على مركبٍ يختر عباب الأزرق.
يهتف دائماً أنه يحب، يحب:

«أواه حبك! لا أحببتُ قبْلُ لا
أحبّ بعدُ. . . تأثّق واغلُ، يا ثمن!»^(١)

يحبّ:

«وما الهوى؟ مطرَحُ من
غَمامَةٍ فوق، تعلّقُ . .
تضيّعُ فيها يدا مَنْ
بعمره يتصدّقُ»^(٢)

يحبّ:

«أموتُ بك. . . احلّولي، كما الطيبُ في الوردِ،
وزوري ولو بالوعدِ، يا أجملَ الوعدِ»^(٣)

حين يحبها تشرق. تصبح قصيدة يصوغها بفعل الهوى وفعل
الاحساس الغامر بالجمال. لذا فكلما أحبها، كلما أعطت، وكلما أعطت
كلما أبدع.

لا يحمل السوطُ شاعرُنَا،
ولا عُقدُ شعراء الشهوة الذين يشربون لذة الجسد حتى الثمالة ثم

(١) نفسه - تشرّد.

(٢) دلزى - الآلهة الصغيرة.

(٣) دلزى - أموت بك!

يخلدون بوقاحة المرأة التي أعطت.
لا يتقن الحب إلا النخبة.

فالحب لم يخلق لرعاى الرجال ولا لرعاى النساء ولا لرعاى الشعراء.
الامر غاية في البساطة.

لكنه أيضاً غاية في الندرة.

أحبها. هي أيضاً أحبته. بنفس الدرجة، بنفس الرقي. بدون حسابات ولا مخاوف ولا أوهام ولا خجل من أن تبوح. وهل يخجل العصفور إذ يغرد وهل يخجل البحر إذ يمتد، وهل يخجل الشعر إذ يكتب؟ ...

ها هي ذي تسأل الأقحوانة عن حبيبها:

«وكدتُ كدتُ من هوى أطير،
قطفتُ أقحوانةً تمُدُّ
عنقاً، ورحتُ بيدٍ أعدُّ
«يحبني، يحبني كثير»
يُحِبُّ بي، يصدّقني، يَحْدُّ،
«يكذبُ... لا... بل» وأستجيرُ
بالورقِ الأخير...
وخوف أن أصدَّ
وأقحواني تقولُ
إنك لا تحبني، للعُمر، للأبد،
أخذها بيدَ
وبيدٍ أنثرها بَدَدُ

ويحي ! وتطوي سرك الحقول»^(١)

فهي إذن لا تريد حباً عادياً أو حباً ينتهي في زمن معين ولو طال
سنوات . هي تريد حباً «للعمر، للأبد» .
هي تريد ارتباطاً لا تكسره السنوات . تريد أن يبقيا درباً وسائر،
وعداً وموعود . ترفض الكلمة الأخيرة للأقحوانة خوف أن تخبرها بأن
انتهاء لهذا الحب سوف يُرسَم لكنها تعود فتهرع إلى عرافة وفي عينيها قلق
على مصير هذا الحب، على حياته .
هي لا تريده أن ينتهي .

وهل يريد أحدهما لسعادته أن تنتهي؟ ...

«خبرني عرافة أنك الدربُ
وأني في الدرب طاب شرودي .
صدقت يا تُرى؟ .. ظننتُ سنبقى
أنا موعودةً وأنت وعودي .
ربما حدّثوا بنا في العشايا،
أو مررنا شذاً ببال الورود .
أو بنا ربّما تغنّت بماماتٍ
وطارت بالعود ريشة عود .
خبرني عرافة أنني الحسنُ :
عجائبي مطلق من قصيدٍ
أغنيات شعري وأدريه كالريح
على قامتي كشل الجريد .

(١) سعيد عقل . أجل منك لا .

وأنا، في البروغ، سوسنة الحقل
 تغاوت كسلانة في الجرود.
 آه منها الصباح، وانتحر الشوك
 وجنّ الندى على الأملود.
 أنا هذا وزدّ وزدّ. أنا لا أوجد
 إلا إن كنت أنت وجودي!
 إي ولو صبح أن زُندك ناداني
 وجيدّ منك انتهى فوق جيدي
 ورماني الذي رمى فتنة الليل
 وباهي حُقانٍ خلف برودي
 وتأمّلت رأسك الصعب في كفي
 أشقى أقول: «يا معبودي».
 لأمرت الوجود أن ضيع، من أجل
 حبيبي ضيع وانوجد من جديد^(١)

أحبته كل هذا الحب. وباحت كلّ هذا البوح فما استبدّ، وما أخذته
 الخيلاء ولا شعر أنه يجب أن ينتقل ليحقق انتصاراً مع حلوة أخرى. أحبت
 وباحت فما كان الوصول إلى هذه المرحلة بالنسبة لشاعرنا الغاية بل كان
 بداية الطريق. ينعشه حبها. تنعشه كلماتها:

ادّعي أي بعينيك ولذتُ...
 أنا الشمس أنا حتى عبّدتُ؟
 يا خذيني مع هُذب ضاربٍ

(١) دلزى.

فوق، إن قال: «زِدِ الأَنْجَمَ» زدت.

كان لي من حَطَّ عَيْنِكَ عَلَى
الأَرْضِ أَنْ زُلْزَلْتُ كالأَرْضِ وَمِذْتُ

لي هما إيوان كسرى وعلا...

وهما لي بعلبك وصِعدْتُ...

مَلِكٌ؟ لَا إِنَّمَا الْعَطْرُ أَنَا،

منذ ما كُنْتُ، إِلَى الْوَرْدِ رُدُّتُ.

وَأَنَا لِلنَّاسِ سِرُّ الْكَاسِ، بِي
سَكُرُوا وَيَحْي! وَبِالسَّكْرِ وَعِدْتُ.

أَدْعِي أَنِي بِعَيْنِكَ وَلَدْتُ^(١)

حُب مَبَازِلُ؟ ... تَحَاكُ؟

هما مثل الوطن المرسوم في لا وعي شاعرنا. انفتاح وسعادة وعظمة.
هما عطاء وبذل.

يتنافسان في العطاء. يتنافسان في الحب. يملأ كل واحد منهما سفينة
أحلاماً وأشواقاً وغزلاً ويبحر بها إلى شاطئ الآخر. يمنحه دون مقابل كل
ما لديه ويعود كلاهما محملاً بشيء أكبر من أن يوصف وأعمق من أن
يُدْرَكَ.

يصبح هو هي وتنقلب المعادلة أيضاً.

لَا يِهِم مَن يَأْتِي الْآخِرُ أَوَّلًا.

لَا يِهِم مَن يَبُوحُ أَوَّلًا.

(١) دلزى.

لا يهيم مَنْ يفتش، إن غاب أحدهما، عن الآخر ويلقاه.
لا يهيم والدربُ إلى الآخر يعرفه كلاهما.

فإذا عُنْتُ لَكَ الذَّكَرُ

ولِيْ هَزَكَ الفراقُ

وإلى العناقِ

إنَّ شباكي على الطريقِ

ارشق الحصى فاستفيقْ

بدلالٍ أبعدُ الاستارِ

فأنا من قبل موعِدِكَ

يلتوي خصري على يدِكَ

مثلما لَحْنٌ على قيثارٍ^(١)

يرشق الحصى على شباكها. يسمَعُ صوتها تستيقظ من انتظار يحسُّ
بوقع أقدامها. يرنو الدرج إليه.

الدرجُ الوشوشُ: «طُرِّ إليها،

حسناؤك البيضاء في انتظار»

والقال: «عمري قفزتا رجليها»

بالبال ذاك الدرج الثنائز^(٢)

الانتظار على غير موعد مسبق يحمل الدهشة والشعر معاً. ولكن إنَّ

(١) أجل منك لا...

(٢) أجل منك لا...

طال، واستيقظتِ الحلوة لا على حصي رُميَ على شباكها أو وردة وقعت في سريرها، فركت عينيها وراحت تفتش عن أثر اعتادت أن تراه.
تعاقبه؟... تعاقبه؟...

تذكر كم جرّ عليها مرة عتابها. تذكر كيف جاء وقتها، كطفلٍ صغير يرنو إلى أمه بنظراتٍ منكسرة. تذكر صوته مليئاً بالألم:

«تعاتين؟ عتابي أنتِ والوجع...»

وا أهة العود من نائين ما سمعوا!

أنا، غيابك، إن أغرقت، آخذُهُ

بالجفن، أخلقني منه وأبتدعُ

ذكرتُ؟.. أنتِ اذكري أيامَ طبتُ أنا

أغنيةً عندها الأفلاك تجتمعُ

اسكتكِ الصعب منها: ما الوجود وما

شدُّ الوجود بخيط الوهم ينقطعُ

والوردُ أنثره تعويذةً لخطي

مضيئاتكِ في شعرٍ به وَلَعُ

وأن تكوني.. وما صدقتُ... لا تعيدي

بأن تكوني... كثيرَ ذلك الدلع^(١)

تعاتبه؟.. تعاقبه؟...

لا... كثيرَ ذلك الدلع. هو عودها أن تحب حباً خالياً من الغضب.

فالحب إن يعرف الغضب يكون مازال ناقصاً.

(١) دلزي.

الحب كالشعر.

إنما «قوامه هدوءٌ خالصٌ تتلاطم فيه فِكرٌ وصورٌ وعواطفٌ، هدوءٌ يجعل النفس، ولا شيء يفجأها أو يعكر صفاءها، منطقيةً على ذاتها، أعماقها على أعماقها، حتى لتغدو أكثر تآلفاً مع حقائق الكون، بل تغدو وحقائق الكون شيئاً واحداً، فإذا هي فوق هذا العالم بآلامه ونقائصه، لا تصطدم عمياء بأي نظام تجهل»^(١).

الحب كالشعر وهي تحب... بالتأكيد تحب.

وكما تنتظر ينتظر هو.

تعودُ بالذاكرة للقاء هرعت هي فيه إليه. تصغي لقصيدة أنشدها:

«أتذكرين؟ مساءً زرتُ

فركتُ عيني... لم أخبِّي

أنا قلتُ - وا كذباؤه! -

هذي الشمس هذي الشمس قربي»^(٢)

تذكر كم كان سعيداً. أو تنتظر بعدُ والشوق يناديها؟...

كثيرٌ ذلك الدلع.

تقف على شباكها. تنظر نحو بيته. تنشق طيبه.

يرف قلبها. تغني:

من صوب بيتكم يهب طيبٌ

الله، يا حلوة، ارفقْ بيا

(١) مقدمة المجلية.

(٢) دلزي.

مُرّ، لا يمر الطيب قريبا
أو أتهاوى في غوى المغيب
همتّت بخصري ذات أضحية
همتّت أن تلمس . . لم همت
هذي أنا، لذكر ما اعترفت
تحملني إليك أغنية
ما شعري فتنة فتنت
طرنا لقولٍ فُت من عنبر
طرنا أنا وقبلة وأنت
وعقدة . . والشعر الأشقر
دنياي أشعارك بي تدور
ها هولبنان افرشي الزهر
مدي يداً للشمس هذي صور
ها بعلبك استوقي القمر
يلج هذا الطيب، هل أجيب؟ . .
نداء بيتكم بمسمعي
معي الهوى وقبلتي معي
طيب أنا أحمل طي طيب . . (١)
يلج الطيب والحلوة.

(١) أجمل منك لا.

على الشباك تنتظر. تنتظر الصوت من داخلها ينبعث يأتيها. يغنيها هو
عبر نسمة تداعب وجنتها:

مُرِّي ببيتِي اليوم، بيتي
شمعتان وبعض كُتِبَ
هو معبدٌ لك، قد يطيرُ
وقد يغربُ فوق سحبٍ^(١)

تمرح الحلوة حافية القدمين. يضحك الدرج. يقص حكايا الحب
للزيفون.

يقول: هذا الشاعر عرف كيف يجعلها تحبه. السرُّ يا صديقي
الزيفون أنه أحبها. بصدق، أحبها.

يقول: هذا الشاعر تعامل مع المرأة كما تحب المرأة، فلا هو ادّعى حباً
عذرياً يجلب العذاب له ولها فحبسها في أنانية ممقوتة،
ولا هو أسفّ فيما رأى فيها سوى جسد وشهوة تشتعل ثم تنطفئ،
يدعوها حيناً إلى حرية مشوهة تعتمد الجسد عموداً فقرياً لها، وحيناً يجلدها
بسوط الحرية ذاته.

مسكين من لا يعرف أن النساء، كل النساء، يحببن السكن في غيمة
وتجرح كؤوس الدلال، والحب يأتيهن بالدهشة والفرح في آن.

مسكين من يعتقد أن النساء يهوين الدموع والعذاب والقلق.
شاعرنا أحب فأهدى حبه وشاحاً مطرزاً بالنجوم وخيوط القمر
والشمس.

(١) دلزى.

شاعرونا أحبّ فلملم الفرح لحبيته .
زرع على شفيتها الضحكات .
غنى لها بولّه .
فحصد بدوره حباً ولا أحلى .
ولطالما وشوشته : « طُرّ إليها
حَسَنًا وَكُفَّ البِيضَاءُ فِي انتظار »
ولطالما طار .

وها هي الآن تطير إليه . هكذا الحب . . .
فليهنأ مَنْ يجده في هذه الصورة .
يتنهد الدرج . يقص حكايا الحب للزيزفون .
رمال الشاطئ تغسل قدمي الحلوة وتغسل آثارهما أيضاً .
لن تعرف أمها هذه المرة .
لن تسألها عنه . فالبحر ، صديقها ، يحى الدرب إلى بيته فإذا ما رأى
الأم في لفة تسأل عن الحلوة ، تظاهر أنه يستحم بالنجم حيناً وبالقمر
اللؤلؤي حيناً رخر .

عوالم الحب لم تخلق لرعاى الرجال .
ولا لرعاى النساء .
ولا لرعاى الشعراء أيضاً .
المصطفون المتذوقون الشعر ابن اللاوعي ،
وحدهم قادرون على الدخول إلى هذه العوالم .
مهلاً قدموس .
قبل أن تبهرك الشمس الآتية إليك هاربةً من أمها ، مشتاقة ، فلا تعود

تصغي إلّا لدفتها.

اعذري.

إذ كنت، مثلك، انتقائية، أختار ما يروق لي أنا وما يعجبني أنا.
فما حاولت طرق باب بيتك واعياً، أستاذاً، مرشداً، تحمل العصا.
ولا أردت الجلوس مريدة أو تلميذة.

بينما وجدتي، رغباً عني، أدخل عوالمك الأخرى أبحر في مركب
فينيقي إلى وطن صنعته في اللاوعي، إلى حب صنعته في اللاوعي.
تغضب، قدموس، إن قلت إني تمنيت لو لم تعش وعيك أبداً، إذ
روعتك تكمن في هذا اللاوعي الجذاب،

تكمن في هذه اللقيات التي تثير الأحلام لا العواصف!

تغضب قدموس؟...

لن تغضب.

وإن فعلت. ما هم؟

إيمان بقاعي

٥ حزيران ١٩٩٤

بيروت

مختارات

أحبك

وأحيا على أملٍ وادعٍ فأبقي له مسحة الخاشعِ كثير ييم على شاطئ قابعٍ من لحظها الفازعِ وأنأ من النغم الضائعِ منه ومن هدأة الحلم الشائعِ	أحبك في ذلة الراكع وأعرف ألا أبوح بحبي لحسنك، كالطيف، شيءٍ تجنبه نسمة المنحى وتطرق تراه من البسمات الشكالى فيا بوح لا تخدش الصمت
---	---



خوف انفلاتك من منظر طامعٍ فلا تقعين على دامعٍ باتت يتيمة ذاك الشذا المائع وذكر الهوى الراجع أسكت عمري، إلى قربك الشافع يزار ويلمس من شاسعٍ وأمضي على لذة القانعِ	أحبك منكسر الطرف وأسمح من عبرتي في الخفاء وثغرك لي فلة الفل فذكر الربيع على سمعها حرام سألتك لا تسألني فيم وقربك لي معبد لا يمس أخط به لفتتي من بعيد
--	--

نشيد العامل

أعمل لا أطلب
أعطيهم أزيد
ما نأيلُ ما غائب
إلا يلقُ تبدعُ ما تريدُ

ما لذّي النعابُ
أنا أنا النشيدُ
أبدلُ الخرابُ
قبابُ
أشيدُ
أعمدةً تضحكُ للسحابُ

أقول للترابُ
كنِ الذهبُ
ويا خشبُ
كنِ الطربُ
واللحنَ والربابُ

أفجرِ القوى
أخرمِ الحديدُ

أفرغ ذوقاً وِغوى
أنقش في الصخرِ الهوى
أبني وأعليه الغدَ الجديدُ

أعمل لا أطالب
أعطيهم أزيدُ
ما نائِلُ ما غالبُ
إلا يدُ تبدع ما تريدُ

لي صخرة

من أين، ياذا الذي استسمته أغصانُ
من أين أنتَ، فذاك السرُّ والبانُ
إن كنتَ من غير أهلي لا تمرّ بنا
أو لا فيما ضاقَ بآبن الجارِ جيرانُ
ومَنْ أنا؟ لا تسلْ. سمراء منبتها
في ملتقى ما التقت شمسُ وشيطانُ
لي صخرة علقت بالنجم أسكنها
طارت بها الكتبُ قالت: تلك لبنانُ
توزعتْها همومُ المجدِ فهي هوى
وكرَّ العقابين تربي فيه عقبانُ
أهلي ويغلون، يغدو الموتُ لعبتهم
إذ تطلَّع صوبَ السفحِ عدوانُ
من حفنةٍ وشذا أرضٍ كفايتهم
زنودهم إن ثقلَ الأرضُ أوطانُ
هل جنة الله إلا حيثما هيئتُ
عيناك؟ كلُّ اتساعٍ بعدُ بهتانُ
هنا على شاطئ أو فوق عند ربي
تفتحُ الفكرُ قلت: الفكرُ نيسانُ
دنبا إلى نقطة شُدَّت وهرقتُ
دماً ألا إنَّ خُلُقَ الحرِّ سلطانُ

كُنَّا وَنَبْقَى لِأَنَّا الْمُؤْمِنُونَ بِهِ
وَبَعْدُ فَلْيَسَّعِ الْإِبْطَالُ مِيدَانُ^(١)

(١) كما الأعمدة.

غنيت مكة

غنيت مكة أهلها الصيدا
والعيدُ يملاً أضلعي عيدا
فرحوا، فلألا تحت كل سما
بيتٌ على بيت الهدى زيدا
وعلى اسم رب العالمين علا
بنيانهم كالشهب ممدودا
يا قارئ القرآن صل لهم
أهلي، هناك، وطيب البيدا
من رакع ويداه أنستا
أن ليس يبقى الباب موصودا
أنا أينما صلى الأنام رأيت
عيني السماء تفتحت جودا
لو رملة هفت بمبدعها
شجواً لكنت لشجوها عودا
ضج الحجيح هناك فاشتبكي
بفمي هنا وُرق تغريدا
وأعز، ربي الناس، كلهم
بيضاً فلا فرقت أو سودا
لا قفرة إلا وتخصبها
إلا ويُعطى العطر لا عودا

الأرض ربي، وردةٌ وعِدَتُ
بك أنت تقطف، فارو موعودا
وجمال وجهك لا يزال رجا
يُرجى وكلُّ سواه مردودا^(١)

(١) كما الأعمدة.

شام

شام، يا ذا السيف لم يغيب
يا كلامَ المجدِ في الكتبِ
قبلك التاريخُ في ظلمةٍ
بعدك استولى على الشهبِ
سكرة يومك، ما الكأسُ
بالكأسِ دُفَّت؟ ما ابنة العنبِ؟
لي ربيعُ فيك خبأته
ملء دنيا قلبي التعبِ
يومَ عيناها بساط السَّما
والرماحُ السودُ في الهدبِ
تلتوي خصرأ فأومي إلى
نفحة الناي: ألا انتحي
أنا في ظلك، يا هديها
أحسبُ الأنجمَ في لُعمي
طابتِ الذكرى فمن راجعُ
بي كما العودُ إلى الطربِ
شامُ أهلوكم إذا هم على
نُوبِ قلبي على نُوبِ
أنا أحبابي شعري لهم
مثلها سيفي وسيف أبي

أنا صوتي منك يا بردي
مثلياً نبعك من سحبي
ثلج حرمونَ غداًنا معاً
شاعراً كالعزِّ في القُبِّ
وحُد الدنيا غداً حبك
لاعب بالريحِ والحقبِ^(١)

(١) كما الأعمدة.

إغراء

قصرنا عالٍ، على الغيوم
وعلى شرفته الزهر
قد تدلّى يكتّم الأثر
من ثواني قبله تدوم
فإذا عنت لك الذكر
ولمّا هزك الفراق
ولمّا العناق
إن شباكي على الطريق
ارشقي الحصى فاستنيق
بدلالٍ أبعد الاستار
فأنا، من قبل موعدك
يلتوي خصري على يدك
مثلما لحن على قيثارة^(١)

(١) أجل منك لا.

درج

الدرجُ الحالي بيزفون
والفوقه تُعرش باسمينه
تكوكب السكينه
للحلوله التخطر كالظنون
الدرج الرنا إلى عهدا
والكادا لي يشهق من دلال
يقول: جُنْ جُنْ أو أشدا
عليك بالأزهر والظلال
الدرجُ الوشوش: «طر إليها،
حسنائك البيضاء في انتظار»
والقال: «غمري قفرتا رجليها»
بالبال ذاك الدرج الثرار

الوعد الضائع

ما همني؟ والطيب لا يَحْمَدُ
إن مر، من دوني أنا، الموعدُ
غداً، أجيء الدار أخلو إلى
بقية من عهدها تُعَبِّدُ
تهش لي حجرتها غصّة
والجُدُر، والأستار، والمقعدُ
أشياء للقبلة فيها فَمُ
حلو، وللهو بشعر يدُ
أسألتها عنها فيحتلني
من الزوايا طيبها الأجمعُ
ورُبَّ أشياء على بكمها
أكرم بوحاً من فمٍ يُسَعِّدُ^(١)

(١) رندل.

القمر

من رواينا القمر
جاءه، أم لا، خبر؟ ...
جاءته رندلي،
ودمى الحُسن الآخر
طال ما فاجأه
حافياً فوق الزهر
مرقت من ثوبه
نزوات لا تذر
هم، ما هم، ومن
غزلنا يكسى القمر
العداري، حوله،
في الربى عقد شرر
ضحكة طافرة
ونشيد في الأثر
والمساء المنحني
بعض هاتيك الصور
ذاهل، شال به
صوت ناي مبتكر
والروابي نهضت
فوق تجوَاب النظر
يا ترى القمر قمر؟ .. (١)

(١) رندلي.

شال

مُرْخُيْ عَلَى الشَّعْرِ شَالُ

لِرِنْدَلِي

هَلَا، هَلَا

بِهَ، بَهَا، بِالْجَمَالِ

مَنْ؟ يَا حَبَابَ الْكَؤُوسِ

مَنْ جَمَلُكَ

مَنْ فَضْلُكَ

حَلُوءًا، كَحُلْمِ الْعُرُوسِ؟...

لَمْ ثَنِيَّةً تَشْتَكِي

ثُمَّ تَغِيبُ؟..

هَيْمَ، يَا حَبِيبَ،

بَلُونِي اللَّيْلُكِي

هَيْمَ، لَا تَقْرُبْ يَدَا

هَيْمَ بِالنَّظَرِ

أَبْقَى الْأَثَرِ

مَا لَمْ يَزَلْ مَوْصَدًا

يا طيب شالِ تُلَمَّ
عنه النجومُ
وبي هموم
لأن يَرى أو يُشَمَّ!

قَبِضْ لي موعِدُ
في ظلِّ شالِ
تُرى الخيالُ
سُكُنِي ومستنجدُ؟

ما لي سألتُ الزَّهْرَ
عن منزلي؟ ..
فقل لي:
هناك، خلف القمر^(١)

(١) رنللي.

نجوى القمر

يا مرحباً بالقمر
في الموعد المنتظر
بين الربى والغمام
دنياك، مَذ تَبَسُّمُ،
قيثارة، تَحَلُّمُ
سكرانة من غرام

من أين، ياذا السرى
من عندها يا ترى
خبر وهاتِ اليقين
يا هل ترى، لم تزل
سكرى بتلك القُبُل
سكرى براها الحنين؟...

يا رَغْدَهُ موعدا
يملاً مني الغدا
ذكرى ارتياحٍ وطيب
أوان - ما أجملا -
تضميني رندلى

وما سواك الرقيب

قل، يا رفيق السمر،
هل للهوى من أثر،
لولاك في العالمين؟
داعبت هذا الفن
أيقظته للحسن،
علمته أن يلين

ضوئك، والأنجم
قصر به ننعم،
فاسبغ بنا في الخيال
ابرّح حدود الزمن
واهبط بنا في عدن
حيث المنى والجمال

وافرش دروباً لنا
في عطفة المنحنى،
بالورد، بالياسمين،
يا قمري، يا قمر
ما غيرنا في البشر،
ما غيرنا الساهرين^(١)

(١) رندل.

يا حلو إن غداً رجعت

يا حُلُو، إن غداً رجعتُ
ترمي إلى الشباك بالزهر
وما فتحتُ، لا تخلي ذلك الليلَ فزعتُ
أو ما سمعتُ
أو أنني مازلتُ غصبي، صِغْتُ من حَجَرٍ
كلّا، وإنما أخافُ
والقمرُ المسلطُ انحدرُ
لا أن ترى قميصي الشفاف
بل أن يرى - ويغمز - القمر^(١)

(١) أجل منك لا.

بقصرنا سوف يمر الشاعر

- بقصرنا سوف يمر الشاعر!

ما أرتدي، بالله، يا مرتا؟

فسطاني التفتا؟

ذاك الربيعي البديع الباهر؟

وباليد اليسرى

أسانيد الخصر

أعلي قليلاً لفتح صدري الضامر؟

بقصرنا سوف يمر الشاعر!

ولن يهم لابي الملك

للبحر، للفلك

مرتا، اضفري شعري الطريف الساحر

غداً خمساً،

مرتا، اضفري الشمس

كأنني أغنية للناظر

قلي رمانه

من ألف ليلة وليلة

بالجوهر الأحمر ملانه

يا ويله يا ويله

- وقصُرنا يَسْمَر
والريح فتانة
دعجاء هيانة
إن لم يفقَّ ذلك الجوهر...
بقصرنا سوف يمرّ الشاعر!
مرتاً! افروشي بالزهر ذي الخصرِ
بالزنبقِ النضرِ،
كلّ ممّرٍ من مزار الزائرِ
عساه، إن يعبرُ
في غدعي، يذكُرُ
أنّي خصرٌ تحت رجلَيْ عابِرٍ^(١)

(١) أجل منك لا.

إِنْسَنِي . . .

حَبِيتِي أَنْتِ؟ الْا حُبَا . . .
أَمَّا أَنَا فَارْدُدْ لِي الْقَلْبَا!
أَمْسِرِ «أَنَا أَنْتِ»؟ . . . انْسَهَا وَإِنْ سَنِي
كَلِمَةً مِنْ شَفَتِي التَّعْبَى
وَهَلْ تُرَانِي قَلْتَهَا؟ هَلْ تُرَى
أَسْبَلْتُ فَوْقَ الدَّمْعَةِ الْهَذْبَا؟
إِنْ صَحَّ أَوْجَعَنِي بِتَرْدَادِهَا،
أَوْ لَا فَلَا جُرْحَتِي عَتْبَا . . .
وَقُلْ وَقُلْ، عَلَيَّ عَلَى ذِكْرِهَا
ابْكِي الْبُكَاءَ الطَّيِّبَ الْعَذْبَا . . .
تَعَشَّقِي أَنْتِ السَّهْلَ . . . دَعْنِي أَنَا
أُحِبُّ حُبِّي الصَّامِتَ الصَّغْبَا!
مَا عَدْتُ، مَا عَدْتُ . . . فَعَم، يَا الَّذِي
أَعْبَدُهُ، تُحْزِقُ الْكُتْبَا . . .
ارَأْتُ بِِي حُبَّكَ لِي لِأَعْبَا
وَقَوْلُهُمْ عَنِّي: «مَا أَغْنَى!»
أَنْتِ، تَنْقُلُ أَنْتِ مِنْ وَرْدَةٍ
لِوَرْدَةٍ تَفْتَحُ بُبَا . . .

وَأَنَا أَنْسَاكَ بِأَشْهِي . . . أَنَا
النِّسْيَانُ قَدْ عَلَّمْتُهُ الْحُبَّ! (١)

(١) دلزى.

أَحْبَبْتُكَ

أَحْبَبْتُكَ لَمْ يَدِرِ الْوَرْدُ...
وَالْعُقْدَةُ وَالشَّعْرُ الْجَعْدُ...
وَالزَّنْدُ النَّازِلُ... قَلَبْتُ الشَّمْسُ
تَنَالَتْ وَانْسَكَبَ النَّدَى...
لَمْ تَدْرِي أَنِّي... وَقَدْ تَدْرِي
وَأَوْعَدُ... يَخْلُقُنِي الْوَعْدُ...
حَقًّا أَنَا قُلْتُ: «سَأَنْظِمُ فِيكَ»؟
كَذَبْتُ كَذَبْتُ وَلَا بُدَّ...
شِعْرِي وَنَجْوَى سَمَاءٍ وَجَمَالِكِ؟...
وَيَحْيَا الْكَوْنُ لَهُ حَدًّا
أَنْ أُغْرِي فَالِكَ وَزَهَرَ صَبَاكِ
وَيُكْتَبُ بِالْقَلَمِ الْقَدُّ...
مَنْ يَحْسُ فِي الْكَلِمَاتِ الرِّيحَ
وَشَيْئًا أَقْرَبُهُ الْبُعْدُ؟
قَلْبِي بِعَضَقٍ مِنْ أَغْنِيَةٍ
لَا قَبْلَ الْحُسْنِ وَلَا الْبَعْدُ...
غُلِّيْ غُلِّيْ... مَا كَانَ الْمَهْدُ
أَلَدَّ وَلَا كَانَ الْمَجْدُ!

ما الشِعْرُ وَحُسْنُكَ لم أشرَبُه؟
الشِعْرُ العزلة والبرْدُ
ويكونُ الكونُ إذا نِسانُ
الخصر هوى... وأنا الزَّندُ... (١)

(١) دلزى.

خُبِرْتُ عَنْكَ ...

خُبِرْتُ عَنْكَ ... سَكَنْتِ قَالَ ...
كَمَا الْغِيَامَةُ، بَيْتَ شِعْرِ ...
وَقَرَأْتُ بَعْضاً مِنْهُ ... تَيْمَنِي ...
ضَمَمْتُ عَلَيْهِ سِرِّي!
أَمَّا الْبَقِيَّةُ فَانْتَسَتْ ...
وَرَقَّ بِكِي لِفِرَاقِ زَهْرِي!
أَنَا ذَا أَفْتَشْ ... هَلْ عَثَرْتُ؟
هَلْ انْتَشَيْتُ بِفَوْحِ عِطْرِ؟
وَتَلَوَّحِينَ: «أَنَا هُنَا ...»
أَنَا عَنْكَ مِنْ وَلَهٍ أُسْرِي!
أَوَاه! بَيْتُ أَنْتِ فِيهِ،
أَلَا كَتَفِي مِنْهُ بِشَطْرِ؟
أَنْسَاهُ ... أَفَنِي فِي صَدَاهُ،
كَمَا الضَّبَابَةُ غَبَّ فَجْرِ ...
يَا ضَائِعاً مِنْ بَيْتِ شِعْرِ،
لَمْ نَفْسَكَ ... لَمْ عُمْرِي!
أَنَا أَنْتَ، مَا بِسِوَايَ قَصْرُ
مَلِكِيَّةٍ ... أَوْ سِحْرُ سِحْرِ ...

بعض؟ ... أنا كجَمَامِ كَاسٍ
فَاتَرَعُ ... أَوْ لَا قَمَرٌ ...
السِّحْرُ بَيْتُ الشَّعْرِ قُصِّبَ
صَخْرُهُ جَمْرًا بِجَمْرٍ،
وَطَيْبٌ تَسْكُنُهُ الَّتِي
كَالطِّيفِ أَكْسُو أَوْ أَعْرِي ... (٢)

(١) دلزى.

الثلاثُ القُبْلُ . . .

الثلاثُ القُبْلُ اشتقتُ إليهنَّ . . .

عُودي، أَسْتَعِذهن طوالاً . . .

كانتِ الأولى اغتصاباً، مثلها

نقرةُ العودِ إذا مالتْ ومالا . . .

أهْ واليَتانِ قَطَفُ وجنى

وتقاسيمُ تداوي وليالي . . .

ما علِ ثغري؟ أأعتابُ الضحى

أَمْ ثواني العُمرِ راحتْ تتألى؟

قُبَّةُ شُكَّتْ نُجُيماتِ رضى . . .

أنا أَعْتالُ النُجُيماتِ اغتيالاً . . .

رُبَّ حَبَاتِ جِمالٍ عَشَّتْها

كُنْ فردوسي . . . أو شيئاً جِبالاً . . .

أنا والكونُ؟ . . . دعي بل أنا والرأسُ

أرميه على صدري دلالة . . .

غَزَلُ الكونِ قديمٌ، فاتركي،

أنا فوقِ القِدَمِ والحِديثِ مَقالا

بي، بقلبي، بالروابي انتشري

كأخياتي الفَرَاشاتِ الكَسالى . . .

أَنْتِ أَنْ الْوَحْيِ ، لَا قَبْلُ وَلَا
بَعْدُ ، أَحْلَى مَا انْتَهَى الْآنُ ضَلَالًا . . .
كُلُّ بَيْتٍ مِنْ قَصِيدٍ طَافَ بِي
طِيفُهُ ، مَا كَانَ إِلَّا كَـ جَمَالًا . . .
مَنْ أَنَا ، وَالْعَطْرُ مِنْ صُوبِكَ مَع
رِيشَتِي يَجْرِي ؟ أَنَا الشَّعْرُ تَعَالَى !^(١)

(١) دلزى.

حَدِيثُ الْوَرْدِ

تُرى كُنْتُ؟ ... لقد طمأن

لا يكذبُني الوردُ...

وعرُجيت على أهواء

رَندي... وانطوى الرَنْدُ...

صحيح؟ هلمِ لم يروها

الأس... ولا الرنْدُ...

أنا الراوي! ولا أذكُرُ

ما الصِدْقُ وما الوعد...

- لعوبٌ أنت، قال الوردُ،

صعبٌ مثلها الوجدُ!

- أنا؟ دعني أغنيها

كما ما ماديت المَلْد:

«بل كُنْتُ. اسألي شِعري،

وشِعري السيفُ والغَمْدُ،

فشطرٌ وحيه أنت،

وشطرٌ أنتِ والمجدُ!»

ويُخفي الوردُ من آهِ

كجُرحِ الطيبِ تمتدُّ،

يُغْنِي: «الحسنُ لا همكُ
وصلُ منه أو صدُّ؟
ومن كانت وما كانت،
لذيذُ أنها البُعد...
وهبها خاطراً... فاشرب
على مَنْ لم تَكُنْ بعداً»
كفى، يا وردُ، هل يُنسى،
وقد أوجعته، القُدُّ؟
صباها... الأغلُ العَشرُ...
وغضبانُ اسمه التهد...
كما السكرَةُ، لا لم تَعُدْ
سَكَبَ الوهمُ، لم تَعُدْ...
لقد عُدْتُ، إذا عُدْتُ،
غرامي... وانتهى العدُّ... (١)

(١) دلزى.

رَقْصٌ .. !!

أَضِيعُ ... على ذراعيَّ لِيْ خَصْرٍ ...
وأَرْقُصُ والرياحُ وَأَنْتَ قَصْرِي ...
إِلَى أَيْنَ الرَحِيلُ؟ ... سَلِي شِرَاعاً
وَرَاءَ جَفُونِكَ الْفَرِحَاتِ يَجْرِي ...
أَجْذِفْ فَوْقَهُ وَيَدَاكَ طَوْقِي ...
وَأَحْيَا مِنْ عَيْرِهِمَا بِسِحْرِ ...
عَلَى مَهَلٍ وَقَوْعِكَ! أَخْلِيْ
عَلَيْكَ يَدِي تُبْعَثُ غُصْنُ زَهْرٍ ...
فَدَيْتِكَ، لَا انْعَطَفْتَ عَلَيَّ. عُمْرِي
صَبَاكَ، وَمَا تَبَقِيَ لَيْسَ عُمْرِي!
جَمَالُكَ لِي، كَمَا الْعَنْقَوْدُ، قَطَفٌ ...
وَكَأْسِي جِسْمُكَ الدَّافِي، وَخَمْرِي ...
وَبَعْدُ هُنَاكَ ... حَيْثُ لَهُ انْتِهَاءُ
رَيْنُ الْأَرْضِ؟ ... خَلِّفْنِي وَسِرِّي ...
أَنَا سِرِّي كَمِ الْأَطْيَارِ، تَحِيَا
لَنَا وَبِنَا تَمُوتُ، وَلَيْسَ تَدْرِي!
حَبِيبَتِكَ لِي عَرُوساً جَمَعْتَهَا
رِياحُ صَبَا نَزَلْنَ بِيَعُضِ عَطْرِ ...

فقلن له : «تُرى وُجِدَتْ . . . وأنى؟»
 فقال : «أظن . . . فوق جَنَاحِ نَسْرٍ! . . .»
 على مَهَلٍ . . . تَمَلَّمْ بِى غرامى
 يقولُ : «وَقَعَتْ واستغواكِ صدري» .
 وَجُنُّ الرقصِ جُنٌّ . . . جرى شِراعى
 يَخُطُّ ، كَثُوبِكِ الغَجْرِيَّ ، بَحْرِي . . .
 وَيَغْرِقُ بِالْحَرِيرِ وَبِالْتَنِي
 وَبِالصُّبْحِينَ : بَلَوْرٍ وَدُرٍّ . . .
 ضَمَمْتُكِ خَوْفَ تَخَطُّفِكِ الثَوَانِي . . . (١)
 وَحَوْلِي الرِّيحُ تَقْصِفُ أَوْ تُعْرِئُ! . . .

(١) دلزى .

كَأَنَّكَ أَغْنِيَّةٌ . . .

كَأَنَّكَ أَغْنِيَّةٌ . . . وَأَطِيرُ أَنَا

وَالزَّمَانُ بِنَا يَرْكُضُ . . .

بِخَصْرِكَ مَبْدَأَهَا . . . ثُمَّ تَعْلُو

وَتَعْلُو . . . إِلَى هُدُبِ يَمْرُضُ . . .

مُرُوراً بِدَحْرَجَةِ الْكَرَّتَيْنِ

وَرَاءَ الْقَمِيصِ الَّذِي يَنْهَضُ . . .

كَأَنَّكَ أَغْنِيَّةٌ . . . كَيْفَ بُحْتُ

أَنَا؟ كَيْفَ تَيَمَّنِي الْأَبْيَضُ؟

أَخُوداً مِنَ النَّحْرِ بَعْضاً . . . وَبَعْضاً

مِنَ الشَّمْسِ زَارَتْهُ تَسْتَقْرِضُ . . .

وَتَيَمَّنِي أَسْوَدُ مِنْ غَدَائِرَ

تُعْطِي الْوُجُودَ إِذَا تَرَفُّضُ . . .

فَكَيْفَ إِذَا انْحَلَّ ذَاكَ الْجَمَالُ . . .

وَكَاللَّيْلِ ضَجَّتْ لَهُ أَغْرَضُ؟ . . .

وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا هَ شَعْرٌ يَلْفُ

عَلَيَّ . . . فَأَخْلَقْتُ أَوْ أُنْقَضُ . . .

لَأَنَّكَ أَغْنِيَّةٌ أَنَا نَائِي

النَّجُومِ عَلَى رَقْمِهَا أَفْرَضُ . . .

وتولع بي آخر أغنيات
 فالوي... ومن كبر أعرض...
 ليبت قصيد أنا... أو لخرين
 عنك... هما الروض إذ يروض...
 وحسنك آخذ بالحقون
 وأغمض، لا مفلتاً، أغمض!... (١)

(١) دلزي.

الفهرس

٥	تمهيد
١٦	الحالم بالمجد سعيد عقل
٢١	العودة إلى فينيقيا
٢٦	صورة الوطن
٣٦	معبد الشمس
٦٦	أبناء البحر
٨٣	عوالم الحب
٩٩	مختارات أحبك
١٠٠	نشيد العامل
١٠٢	لي صخرة
١٠٤	غنيت مكة
١٠٦	شام
١٠٨	إغراء
١٠٩	درج
١١٠	الوعد الضائع
١١١	القمر
١١٢	شال
١١٤	نجوى القمر
١١٦	يا حلوان غداً رجعت

١١٧	بقصرنا سوف يمر الشاعر
١١٩	إنسني.....
١٢١	أحببتك
١٢٣	خبرت عنك
١٢٥	الثلاث القُبل
١٢٧	حديث الورد
١٢٩	رقص...!!
١٣١	كأنك أغنية

لا شك أن القارئ العربي بحاجة ماسة إلى
الاطّلاع على تراثه الفكري العظيم المتمثل بالأدب
والتاريخ والفلسفة والفقه وعلم الكلام وغير ذلك من
ميادين الثقافة والمعرفة .

وبما أن تحصيل هذه المعرفة الموسوعية المتكاملة
لا يكاد يُتاح إلا لأفراد قلائل من ذوي العقول المتميّزة
والبصائر المتوقّدة، كان لا بدّ لنا من تقديم هذا التراث
بشكلٍ مختصرٍ وجامعٍ في الوقت نفسه، بحيث يوافق
هذا الإطار المقترحُ أكثريةَ القراء العرب، وخاصة طلاب
المراحل الثانوية والجامعية . فكانت هذه السلسلة عن
أعلام الأدب من نثر وشعر، تولّى كتابتها مجموعة من
الاختصاصيين الذين تحرّروا فيها السلاسة في الأسلوب
والعمق في التحليل والاختصار في المعلومات، بما يحقق
الهدف المنشود من إصدارها .

كما نشير إلى أننا - بالإضافة إلى هذه السلسلة التي
بين يديك عن أعلام الأدباء والشعراء - أصدرنا، ونصدر
تباعاً إن شاء الله مجموعاتٍ أخرى عن أعلام الفكر العربي
والغربي في مختلف الميادين المعرفية، بنفس الأسلوب
والمنهج اللذين اتبعناهما في إصدار هذه السلسلة . والله
من وراء القصد .

وكيل عام في جمهورية مصر العربية

مؤسسة الخلود - مركز الكتاب العلمي - مدينة نصر تلفون ٢٦٢٦٨٤١